الدكتور أحمد هيكل

شخصيات أدبية



شخصيات أدبية

الدكتور أحمد هيكل



١٤٣١ هـ / [illegible]





الكتـــــاب: شخصيات أدبية
المؤلـــــف: د. أحمد هيكل
تاريخ النشر: ٢٠١٠ م
الطبعـــــة: الأولى
رقـم الإيداع: ١٩٢٨ / ٢٠١٠ م
الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-463-063-7

الناشـــر:

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة والمطابع:

١٢ شارع نوبار لاظوغلي (القاهرة)

تليفون: ٠٠٢٠٢٢٧٩٤٢٠٧٩ فاكس: ٠٠٢٠٢٢٧٩٥٤٣٢٤

التوزيـــع:

٣ شارع كامل صدقي الفجالة - القاهرة

تليفون: ٠٠٢٠٢٢٥٩١٧٩٥٩

www.darghareeb.com

أستاذى الدكتور أحمد هيكل

... في رحاب الله

كنتَ -وستظلّ- منارة هاديةً نقبس منها قيما خلقيةً رفيعة...

وها أنذا أرد ذرة مما لكم عليّ - وعلى أجيال كثيرة - من أفضال؛ بطبع تراثكم المتفرد.. وفاءً لكم، وتقديراً لأفضالكم.

تلميذك

الدكتور محمد عبد العزيز الموافى

إهـــــــداء

إلى أرواح هـؤلاء الأدباء الـعظام، الـذين أضـــاءوا الآفاق بنور عقولهم، وأسعدوا الملايين بإبداعات أقلامهم، والذين لولاهم مـا استطاعت أقـلام كثيـرة أن تُسَطِّر، ولا تمكنت ألسنة عديدة من أن تُعَبِّر .

أحمد هيكل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذه طائفة من الأحاديث، عن شخصيات مرموقة في أدبنا الحديث، كنت قد آثرتها بالكتابة عنها، لما رأيته لها من عطاء أدبي غنيّ، ولما لها في نفسي من حب وتقدير شخصيّ.. وقد ظهرت هذه الأحاديث للناس مفرّقة من قبل، ثم رأيت أنه قد يكون من الخير جمعها في عمل يضمها ويصونها. فكان هذا الكتاب، الذي أقدمه إلى القراء الأعزاء، راجيًا أن يجدوا فيه إضافة، ولو يسيرة - في مجال التعريف بهذه الشخصيات العزيزة الأثيرة.

وقد آثرت أن أرتب هذه الشخصيات - خلال عرضها في الكتاب- وفق ترتيب سنوات مولدها، فجعلت أقدم شخصية مولدا هي الشخصية الأولى، كما جعلت أحدث شخصية مولدا هي الشخصية الأخيرة، وبين الأولى والأخيرة يتوالى عرض الشخصيات حسب سنوات الميلاد.. وأرجو أن يكون هذا الاختيار في ترتيب الشخصيات موضع القبول.. والله الموفق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

أحمد هيكل

القاهرة - شهر يناير سنة ١٩٦٧م

حسن توفيق العدل
رائد تاريخ الأدب العربي

هذا واحد من الرواد العظام الذين تفخر بهم الشخصية المصرية، وتعتز بهم العقلية العربية.. وذلك من أجل نبوغه وعلمه ومكانته، ومن أجل سبقه وعطائه وريادته.. فهذا الرجل نموذج رائع للمصري الموهوب، وللعالم العربي الواسع الثقافة متعدد جوانب المعرفة. وهو كذلك مثال مشرّف للسفير العلمي، الذي لم يقدّم إلى بعض الأمم الغربية أوراق اعتماد «دبلوماسية» تُعَرّف به وبوظيفته، وإنما قدم إلى كبار المسئولين في بعض هذه الأمم أوراق اعتماد علمية، تؤكد مكانته وتشرف بلده وأمته.. ثم هو بعد ذلك كله - أو قبل ذلك كله - رجل ذو عطاء أدبي رائد، وتأليف في الأدب غير مسبوق.. وقد يكون بعض من جاءوا بعده قد تفوقوا عليه في تأليفه، ولكن يبقى لهذا الرجل دائمًا فضل الريادة، التي لا يُنقِص في مجالها لاحق حقَّ سابق..

وقد ولد حسن توفيق العدل بمدينة الإسكندرية سنة ١٨٦٢، في أسرة قد عُرفتْ بالعلم، ولوالد يشتغل بالقضاء.. وبدأ تعليمه بحفظ القرآن الكريم في دمياط، حيث كان والده رئيسًا لمحكمتها، ثم تلقى مبادئ علوم اللغة والدين على أيدي بعض العلماء من أصدقاء أبيه.. ثم

قَدِم الفتى إلى القاهرة ليتعلم في الأزهر، فجلس في حلقاته يتلقى العلوم الشرعية واللغوية على أيدي العلماء المشاهير، كالشيخ السقا والشيخ العدوي والشيخ الإنبابي والشيخ الشنقيطي، حتى نال إجازة الأزهر وسنه تسع عشرة سنة.. وكان أثناء دراسته بالأزهر لا يكتفي بدراسة العلوم التقليدية، وإنما كان يتابع دروسًا في العلوم الحديثة من خلال تردده على مدرسة الشيخ صالح بالسيدة زينب، فيكون بين الدارسين فيها مساء، وبين الدارسين في الأزهر صباحًا.. وإلى جانب ذلك أخذ يتعلم اللغة الفرنسية، لتكون نافذة يُطِلّ من خلالها على الثقافة الغربية .

***

وبعد أن نال إجازة الأزهر التحق بدار العلوم، وتابع دروسها ومحاضراتها أربع سنوات حتى نال إجازتها سنة ١٨٨٧ وهكذا دَعّم حسن توفيق العدل دراسته اللغوية والدينية والأدبية وجدّدها، وجمع بين الروافد التراثية والمناهل العصرية.

وبسبب نبوغه ومعرفته للغة أجنبية، ثم اختياره ليكون معلمًا للغة العربية بالمدرسة الشرقية في «برلين» التي عاش بها أكثر من خمس سنوات معلّمًا ومتعلمًا في الوقت نفسه.. فأتقن اللغة الألمانية إلى درجة أنه ترجم نماذج من أدبها إلى اللغة العربية، وعَرَفَ المجتمع الألماني عن قرب، وخاصة فيما يتصل بأمور التربية والتعليم فيه، ويتضح ذلك في كتاب ألفه بعنوان: «الرحلة البرلينية».

ولمكانة هذا الرائد الرفيعة، ولسيرته الطيبة المعجبة، استقبله «غليوم» إمبراطور ألمانيا، وقلّده وسام التاج الملوكي، وسلمه براءته بنفسه.. كذلك أرسل إليه المستشار الألماني «بسمارك» أحد الوزراء، ليقدم إليه شكره على كتابته عنه وإشادته به.

وبعد السنوات التي تزيد على الخمس، والتي قضاها حسن توفيق العدل في ألمانيا، عاد إلى مصر، بعد أن قام بجولة في بعض الجامعات الأوربية، مثل جامعة «أكسفورد» وجامعة «كيمبردج» وغيرهما .

***

وفي مصر عُيِّن مفتشًا بوزارة المعارف ومُدرسًا بدار العلوم.. وحين أسند إليه تدريس الأدب العربي سنة ١٨٩٨، وضع لطلابه كتابًا رائدًا في التأريخ للأدب العربي، معتمداً أولاً على تلك المحاضرات التي كان يلقيها على طلابه في ألمانيا، ثم مستفيداً ثانيًا من طريقة الألمان في التأريخ للأدب، تلك الطريقة التي اتضحت في كتاب «بروكلمان» العالم الألماني المشهور، وصاحب الكتاب المعروف باسم «تاريخ الأدب العربي».

***

وحين جاء إلى مصر العالم الإنجليزي «براون» ليفيد من الدراسة في دار العلوم، أعجب بحسن توفيق العدل، واختاره ليكون أستاذاً للغة العربية في جامعة «كيمبردج»، فسافر العدل إلى إنجلترا سنة ١٩٠٣، وقام بهمته في

جامعة «كـيمبردج» خير قـيام.. ثم وافته المنية وهو هناك في شـهر يونيو سنة ١٩٠٤م. فنُقل جـثمانه إلى مصـر، وشُـيـعت جنازته بكثير مـن الحفـاوة والتكريم، حيث تَصـدَّر المشيعـين عدد غير قـليل من كبار العلمـاء ورجال الفكر والسياسة، من بينهم الشيخ محمد عبده والزعيم مصطفى كامل.

وقد خلّف حسن توفـيق العدل عدداً غير قليل من المؤلفـات العلمية الرائدة في مجالاتها، بالإضافة إلى كتابه الإبداعي، «الرحلة البرلينية».. ومن المطبوع من تلك المؤلفات، كتاب «البيداجـوجيا»، وكتاب «مرشد العائلات في تربيـة البنين والبنات»، وكـتاب «أصـول الكلمـات العـاميـة»، وكتـاب «سياسة الفحول في تثقيف العقـول»، وكتاب «الحركات الرياضية البدنية».. وله غيـر تلك الكتب المطبوعـة بعض الكتب التي لم تطبع، وإن كـان معظم المطبوع من كتبه أصبح أشبه بالمخطوطات، نتيجة لسوء الطبع أحيانًا، ولنفاد الطبعات في أكثر الأحايين.

على أن أهم ما كتبه الأستاذ العـدل، هو كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية»، الذي ألفـه أسـاسًا لطلبـة دار العلوم، بعـد أن أسند إليـه تدريس الأدب بهـا سنة ١٨٩٨م.. وهذا الكتـاب قد طُبع عـدة طبـعات من أهمـها الـطبعـة التي تمت سنة ١٩٠٦م بعد وفاة المؤلف، الذي كان قد فرغ من تأليف هذا الكتاب سنة ١٩٠٢م .

***

وإنما كان هذا الكتـاب أهم كتب الأستاذ العـدل؛ لأنه راد به التأليف في ميدان الـتأريخ للأدب على المنهج الحديث، أو على أحد المناهـج الحديثة

وهو المنهج التاريخي.. فقد كانت دراسة الأدب قبل هذا الكتاب تعتمد أساسًا على طريقة القدماء من أمثال المبرِّد والقالي والجاحظ، حيث كانت العناية تتجه أولاً إلى جمع النصوص الشعرية والنثرية المختارة، بالإضافة إلى طائفة من الأخبار والمُلح والأمثال والحكم، ثم يتم تناول هذه المادة المنوعة تناولاً يهتم باللغة والبلاغة والفهم والتذوق.. ومن أمثلة التأليف في الأدب أو درسه على الطريقة القديمة، كتاب «الوسيلة الأدبية» للشيخ حسين المرصفي، وكتاب «المواهب الفتحية» للشيخ حمزة فتح اللَّه.

ثم جاء كتاب الأستاذ العدل، فسلك طريقًا جديدًا في دراسة الأدب، وهو طريق - كما يقول المؤلف - يُشَخّص الحياة البيانية للأمة العربية في عصورها المختلفة، من نشأة لغتها وتدرجها، وما دُوِّن فيها من أنواع العلوم والفنون.

***

وواضح أن الأستاذ العدل قد ربط في منهجه بين النتاج الأدبي والعصر الذي قيل فيه. كما أنه جعل تقسيم العصور الأدبية تابعًا لتقسيم العصور السياسية.. فقد قسم العصور الأدبية إلى خمسة عصور، هي: العصر الجاهلي، وعصر ابتداء الإسلام، والعصر الأموي، والعصر العباسي والأندلسي، ثم عصر الدول المتتابعة إلى هذا العهد..

ولكن يبدو أن المنية قد عاجلت المؤلف قبل أن يتم التأليف عن العصرين الأخيرين؛ ولذا ظهر كتابه متناولاً العصور الثلاثة الأولى فحسب..

وقد قدّم المؤلف لدراسة هذه العصور بخمس مقدمات عامة صدّر بها كتابه.. وهذه المقدمات تحمل هذه العناوين: «احتياج الإنسان إلى التفاهم وإلى معرفة الموجودات»، «محاكاة الطبيعة في النطق»، «اللغة»، «أدب اللغة»، «تاريخ أدب اللغة».. وقال عن تاريخ أدب اللغة ما يلي:

«تاريخ أدب اللغة لأية أمة، يبحث عن حالة الحياة العقلية والبيانية للأمة في عصورها المختلفة، وعن نشأة لغتها وتدرجها ومدوناتها.. وتاريخ أدب اللغة تابع في تقسيمه للتاريخ السياسي أو الديني في كل أمة؛ لأن الأحوال السياسية أو الدينية تكون في العادة عامة، فإما أن تبعث الأفكار وتحرك الأميال لمزاولة المعارف، أو تكون سببًا في وقوف الحركة الفكرية في الأمة بما يلحق السياسة أو الدين من الضعف والوهن. ألا ترى ابتداء زهو اللغة العربية وقيامها بمقتضيات الملك والسياسة، إنما كان منذ ظهور الإسلام، فكان الداعي الأول الذي بعث من همم العلماء لخدمة اللغة هو الدين، طلبًا للوصول إلى معاني القرآن الكريم، وتعرُّف الشريعة السمحاء، ولم تزل الهمم منصرفة إلى خدمتها والتدوين بها إلى أن انتاب البلاد الإسلامية ما انتابها من تفرق القائمين بها منذ العصور المتوسطة إلى هذا العهد، فانطمست معالم العلم، ووقفت الحركة الفكرية وانقطع سند التعليم إلا في القليل».

وبعد هذه المقدمات، شرع الأستاذ حسن توفيق العدل في الحديث عن العصر الجاهلي، فتكلم عن أقسام العرب، ثم صَوَّر الحياة العقلية في الجاهلية، ثم تكلم عن الخط العربي، ثم اللغة العربية وتهذيبها، بادئًا من

مكانها من اللغات السامية، وواصلاً إلى استوائها وإبداع الأدب بها.. وهنا وصل إلى النثر الجاهلي، فبين أهم فنونه من الأمثال والحكم والخطب، وأورد بعض النماذج من كل فن، مشيراً إلى أسماء النابهين في هذا الفن.. وبعد ذلك انتقل إلى الشعر، فتحدث عن نشأته وأوليته وقيمته عند الجاهليين.. ثم عرَّف بالسبعة شعراء المعلقات، وأتبعهم بعدد آخر من شعراء الجاهلية الكبار، مورداً بعض النماذج الشعرية من شعر كل شاعر.. ثم ختم الحديث عن الأدب في العصر الجاهلي بالتعريف الموجز بمجموعات الأشعار الجاهلية، وأهم المصادر التي تضم أشعاراً للجاهليين.

***

ثم تحدث الأستاذ العدل عن عصر ابتداء الإسلام، واهتم بالحديث عن القرآن الكريم وأهم جوانب البيان فيه، وعن علاقة هذا الكتاب الكريم بأدب اللغة العربية.. وبعد ذلك بدأ الحديث عن النثر في عصر صدر الإسلام، فتحدث عن المأثور عن الرسول الكريم ﷺ من أحاديث وخطب ورسائل.. ثم تحدث عن المأثور عن الخلفاء الراشدين من نثر تمثّل في خطبهم وكتبهم، وأورد نماذج دالة ومؤكدة لكل ما ذكر من حديث عن النثر.. ثم انتقل إلى الحديث عن الشعر، فعرض لحال هذا الفن في عصر ابتداء الإسلام، وأفرد أحاديث للشعراء في ذاك العصر، مثل حسان بن ثابت، وكعب بن زهير، وعبدالله بن رواحة وغيرهم. وعرض نماذج شعرية لمن ذكرهم من الشعراء.

***

وأخيرًا انـتقل الأستاذ العـدل في كتابه «تاريخ آداب اللغة العـربية» إلى الحديث عن عصر الدولة الأموية، فتـحدث أولاً عن حال اللغة في ذاك العصر، وما كان من وضع النحو والاهتمـام بالنقط والإعجام، ثم تحدث ثانيًا عن تدوين الحديث وتسـجيل التاريخ وبداية الاهتمـام بالتأليف والترجـمة.. ثم وصل إلى الحديث عن الأدب نفـسه، فـبدأ- على عادته- بالنثـر، فتحـدث عن أهم فنونه كالخطابة وأشهر الخطباء، وعن الرسـائل وأبرز الكتّاب، وأورد ما اتسع له المقام من الشواهد.. ثم تحدث عن الشعر وما طرأ عليه من ظواهر في العصر الأموي، ثم عرّف بكبار الشـعراء في ذاك العصر، مثل جرير والفـرزدق والأخطل وعمر ابن أبي ربيعة والكُميت وغيرهم، وأورد نماذج من أشعارهم.

***

وهكذا ينتـهي ما بين أيدينـا من تأريخ الأستـاذ العدل للأدب العـربي، كما جاء في كـتابه «تاريخ آداب اللغة العربية».. وهذا الكتـاب كما قيل عنه- في شـبه إجـماع- أول كـتـاب بالعربيـة يدرس الأدب العـربي بهذه الطريقـة المنهجـية، التي خـرجت بالدرس الأدبي من مجرد جـمع المختـارات والتعليق عليها لغويًا بلاغيًا تذوقيًا، إلى نهج آخر من الدرس، يقوم على رصد المؤثرات التي تنعكس على الأدب وتؤثر فيـه، تلك المؤثرات التي تتمثل في حـالة اللغة أولاً، ثم في الحيـاة العقلية التي يتنفس فيـها الأدب ثانيًا.. كمـا يقوم هذاالنهج من الدرس - بعـد رصد المؤثرات- على وصـف حال كل فن من فني القـول وهما النثر والشعر، وبيان مـا أصاب كلاً من هذين الفنين من تطور في عصر،

خالـف به الأدبُ ما كان عـليه في عـصر سابق، ومـا سيكون عـليه في عـصر لاحق.. كل ذلك مع التـعريف بالأدباء: شعـراء وناثرين، ومع إيراد نماذج من إبداعهم تؤيد ما قيل عن خصائص فنهم.

***

وقيـمة هذا العـمل الذي قام به الأستـاذ العدل تأتي- كـما قلت- من كونه يحـتل مكان الريادة، وأنه يمثل نقطة تحـول كبرى في مـسيـرة الدراسات الأدبية العـربية.. وقد كـان لهذا العمل تأثيـر بعيد المدى فـي أهم المعاهد التي كـانت تُعنى بدراسـة الأدب العربي مـنذ أواخر القـرن الماضي وأوائل القـرن الحالي، مـثل دار العلوم ومدرسـة القضاء الشـرعي والجامعـة المصرية.. فـقد جاءت مـعظم الدراسات في تاريخ الأدب العربي بهـذه المعاهد، وقد تـتبعت خطوات الأستاذ العدل، وسارت غالبًا على دربه.. وظل الحال على ذلك حتى أعلن طه حـسين ثورته على هذه الطريقـة في كـتـابه « في الشعـر الجـاهلي»، ورأى الأخذ بطريقة أخرى ليس هذا المقام مقام تفصيل القول فيها..

ولكن مع ذلك، ومع تجـاوز الـدراسـات الأدبيـة للمـسـتـوى الذي أوصلهـا إليه الأستـاذ العدل، يبـقى للرجل وكتـابه فضل الريادة والـسبق.. ومهـما قيل من أن «بروكلمان» قـد سبق العدل في طريقـة التأريخ للأدب، ومهما قيل أيضًا من أن كتاب هذا الأسـتاذ الألماني أعم وأعمق، ومهما قيل بعد ذلك كـله، من أن طريقة الأسـتاذ العدل لـم تعـد الطريقة المثـلى لدراسة الأدب؛ فإن الذي لاشك فـيه أن الرجل قـد شق لدراسة أدبنا العـربي- قبل

الجميع- طريقًا جديدًا، وجاء كتـابه كتابًا رائدًا ومنهجيًا بكل المقاييس؛ لأنه أول كتاب بلغتنا العـربية يسير في دراسة الأدب على طريقة منهـجية، قد لا تكون هي الطريقة المثلى، ولكنها طريقة منهجية على كل حال..

***

وجدير بالثـناء هذا العمل العلمي المشكور، الذي قـام به الدكتـور وليد محـمود خالص، حين حقق وأعـاد نشر كتاب الأسـتاذ العدل، وقدم له بمقـدمة طيبة أفدت منها، ومن النسخة المحققة فائدة كبيرة.. ولعل باحثين آخرين يؤدون مثل هذا الواجب نحـو كتب أخرى للأستـاذ العدل، فهو وإنتـاجه المنوع الرائد، جدير بالحفـاوة به وإلقاء الضوء عليه.. وهذا بعض حقـه الذي يستوجب الأداء من دارسي الأدب الجادّين الأوفياء..

أهم المراجع:

١- تقويم دار العلوم للأستاذ محمد عبد الجواد.

٢- دراسـة أدب اللغـة العـربيـة بمصـر في النصـف الأول من القـرن العـشـرين للأستاذ أحمد الشايب.

٣- تاريخ آداب اللغة العربية للأستاذ حسن توفيق العدل.

٤- المقدمة التي صدّر بها الدكتور وليد محمود خالص تحقيقه لكتاب الأستاذ العدل.

شوقي
أمير الشعر العربي

لا يماري منصف في أن شوقي عَلَمٌ من أعلام الأدب العربي، ورائد من أعظم رواد الإحياء القومي، وشاعر من مفاخر النبوغ المصري. بل إن مكانته - في رأيي- تضارع في العصر الحديث، مكانة المتنبي فيما سبق من عصور- بل إني أرى أن شوقي قد تفوق بما أضاف إلى قيثارة الشعر العربي من أوتار، وبما سد من فراغ، كان دائمًا هذا الشعر في حاجة إلى من يسده؛ حتى تكتمل للشعر العربي، كل الملامح المطلوبة للمكتمل الراقي من الشعر العالمي.. وقد هيأت الأقدار شوقي للقيام بهذا الدور، فأداه على خير وجه، واستحق من أجل عطائه الكبير، ودوره الريادي الخطير، أن يصبح في الخالدين.

وقد ولد شوقي في القاهرة سنة ١٨٦٩، ونشأ في بيئة أرستقراطية، عمادها أهل تجتمع في أعراقهم الدماء العربية والتركية، ولهم صلات بالأسرة الحاكمة في مصر من أبناء محمد علي. وتعلم شوقي في مدارس القاهرة الابتدائية والثانوية، ثم التحق بمدرسة الحقوق والإدارة، وتخرج في قسم الترجمة بها سنة ١٨٨٧، فعيّن بالقصر الخديوي على عهد توفيق، ثم

أرسل في بعثة إلى فرنسا، فـدرس أولاً في «مونبيليـه» سنتين، ثم انتقل إلى «باريس» ودرس بها سنتين أخريين، وانتهـز فرصة وجوده في أوربا، فطاف بجهـات عديدة من فرنسـا، وزار إنجلترا، ثم عاد إلى مـصر وعُيّن بالقـصر، وأصبح في مـعية الخديوي عـباس حلمي، الذي اعتلى العرش بعـد توفيق، والذي أبدى في أول عهده تعاطفًا مع الحـركة الوطنية؛ ولذا ارتبط به شوقي وأصبـح شاعـره.. وحين أُعلنت الحـرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤، كـان الخديوي عباس في تركيا، فمنعـه الإنجليز من دخول مصر، وأخذوا يبعدون أنصاره، فنفوا شوقي إلى إسبانيا، حيث ظل في مدينة برشلونة طيلة سنوات الحـرب. ثم سمـح له بالعودة بعـد انتـهـائها، فـعـاد إلى مـصر بعـد أن زار الأندلس، وأهم آثار الحضـارة الإسلاميـة في تلك البلاد، وكـانت عودته في أعقاب ثورة ١٩١٩م.

وقد بويع بإمارة الشعر سنة ١٩٢٧م، بعد أن ناضل بشعره الرائع في كل المجالات الوطنيـة والقومـية والإسلامـية، وظل مرمـوقًا مقـدراً كأعظم شاعر مصري، وكواحد من أعظم شعـراء العربية في كل العصور.. وأخيراً وافته المنية ليلة الرابع عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٣٢م .

وقد اجتـمعت لشوقي الموهبة الشـعرية الفذة، وغذتهـا الدراسة الأدبية الواسعة، حـيث هضم التراث العربي، وخـاصة التراث الشعـري الجيد، الذي واكب الاهتمـام به فترة الوعي، التي التفـتت فيهـا أنظار الرواد- منذ منتصف القرن الماضي إلى وجوب إحياء التراث العـربي، الذي أنتجته عصور الازدهار

القديمة، والذي رأى فيه هؤلاء الرواد الدعامة التي يجب أن تبنى عليها النهضة الحديثة.. كما عَبَّ شوقي - إلى جانب هضمه للتراث- من الثقافة الأدبية الغربية، وخاصة حين نُفِيَ في إسبانيا. وقد أتاحت لشوقي هذه الموهبة الفذة وتلك الثقافة الأدبية العربية الغربية، إلى جانب الحياة المستقرة الموفورة؛ أتاحت هذه الظروف كلها لشوقي، أن ينتج إنتاجًا شعريًا يتسم بالجودة الفائقة، والتنوع الباهر، والغزارة الثرية؛ حتى استحق بحق أن يكون أمير الشعر العربي في العصر الحديث..

***

وشوقي يعد قمة اتجاه شعري، هو أول الاتجاهات الفنية الأصيلة الجادة في هذا العصر. هذا الاتجاه الذي أنقذ الشعر العربي من ركاكة عصور التخلف، والذي يسميه البعض «الكلاسيكية الجديدة» في الشعر العربي، ويسميه البعض مدرسة البعث، ويسميه آخرون مدرسة الإحياء.. وكلها تسميات لها مسوغاتها، وتلتقي جميعًا عند مفهوم واحد، وهو أن هذا الاتجاه يعمد إلى المحافظة على قيم الشعر العربي الأصيلة، ويتخذ النماذج الممتازة التي خلّفتْها عصور الازدهار العربي مثلاً أعلى. وكان رائد هذا الاتجاه هو البارودي، الذي عايش فترة الوعي، وهي الفترة التي التفت فيها رواد الفكر والثقافة والخلاص القومي، إلى التراث كمنطلق لنهضة جديدة، تعيد إلى أمتنا أمجاد السلف، الذين صنعوا حضارة وأقاموا دولة، كان من ثمارها هذا التراث العظيم.. وقد استطاع البارودي أن يخطو

الخطوات الأولى في هذا الاتجاه - اتجاه «الكلاسيكية الجديدة» أو اتجاه البعث، أو اتجاه الإحياء، ثم جاء شوقي فوسع الخطوات بما أتيح له من موهبة أعظم وثقافة أوسع، وظروف أكثر مواتاة. بل إن شوقي سما بالشعر من هذا اللون حتى وصل به إلى القمة، التي لم يستطع شاعر من معاصريه ولا ممن جاءوا بعده - من أصحاب مذهبه - أن يصلوا إليها.

ولأن هذا المذهب في الشعر يقوم على دعامتين أساسيتين: هما المحافظة على تقاليد الشعر العربي الأصيلة، ثم الاهتمام البالغ بالجانب الصياغي الجمالي البياني، فإنني أميل إلى تسمية هذا الاتجاه الذي يعد شوقي قمته باسم «الاتجاه المحافظ البياني».

وقد أنتج شوقي ثلاثة ألوان من الشعر: أولها ما نسميه «الشعر الغنائي» أي شعر القصائد التي يعبر فيها الشاعر عن أحاسيسه الذاتية أو الوطنية أو القومية، أو يعبر عن أية تجربة ينفعل بها حيال أي موقف أو حدث أو شيء، تعبيراً ذاتيًا وكأنه يغني أحاسيسه أو يُنغّم بالشعر انفعاله.. ولشوقي من هذا الشعر الغنائي - شعر القصائد والمقطعات- ديوان من أضخم دواوين شعراء العربية، يقع في أربعة مجلدات، ويسمى «الشوقيات».

وثاني ألوان الشعر التي أنتج فيها شوقي، هو ما يسمى «الشعر القصصي الخرافي» أو شعر الحكايات على ألسنة الحيوانات والطيور، وقد أبدع شوقي من هذا اللون طائفة من القصص، لاشك أنه استفاد فيها من إبداع الشاعر الفرنسي «لافونتين».

وثالث ألوان الشعر التي أبدع فيها، هو «الشعر المسرحي». وقد أنتج شوقي ست مسرحيات شعرية، بدأها بمسرحية «علي بك الكبير»، التي أنجزها في شكلها الأول وهو يدرس في فرنسا، ثم انصرف فترة عن الشعر المسرحي.. وحين بويع بإمارة الشعر سنة ١٩٢٧م، كان الازدهار المسرحي يلفت الأنظار، وكان بعض خصوم شوقي يأخذون عليه حصر نفسه في الشعر الغنائي، فبدأ يتوج حياته الشعرية بسلسلة من المسرحيات تؤكد اقتداره وعبقريته، فألف خمس مسرحيات جديدة، وأعاد كتابة مسرحيته الأولى التي كان قد كتبها من فترة طويلة .

وهكذا ألف شوقي في الفترة من سنة ١٩٢٧م إلى وفاته سنة ١٩٣٢م مسرحية «مصرع كليوباترا»، ومسرحية «مجنون ليلى»، ومسرحية «عنترة»، ومسرحية «قمبيز»، ومسرحية «الست هدى»، كما أعاد صياغة مسرحية «علي بك الكبير».. وقد اختار شوقي لمعظم مسرحياته المجال التاريخي، فهي قسمة بين التاريخ المصري مثل «قمبيز» و«مصرع كليوباترا» و«علي بك الكبير»، وبين التاريخ العربي مثل «مجنون ليلى» و«عنترة».. كما اختار كذلك لمعظم المسرحيات اللون المأسوي، ومال إلى انتهاج المذهب «الكلاسيكي» متأثراً بالكاتبين الفرنسيين «كورني» و«راسين»، ومطعمًا كلاسيكياته بجوانب رومانسية، تناسب الذوق العربي والحس الغنائي للمشاهد والمتلقي المصري. ولا يُستثنى من المجال التاريخي

«التراجيدي» من مسرحيات شوقي غير مسرحيته «الست هدى»، التي جعلها معاصرة أولاً، وفي إطار ملهاة ثانيًا .

***

وهكذا كان شوقي رائد الشعر القصصي والمسرحي في أدبنا العربي، كما كان صاحب القمة التي لم يستطع شاعر من بعده أن يصل إليها في مجال الشعر الغنائي، في اتجاهه المحافظ البياني.. وهكذا أيضًا تشمخ قامة شوقي متفردة في الشعر العربي حديثًا، كما شمخت قامة المتنبي متميزة في الشعر العربي قديمًا. وبين الشاعرين وقبلهما وبعدهما شعراء كثيرون، لكن قليلين منهم من يقرب من قائمة أيٍّ من الشاعرين الكبيرين.

رحم اللَّه شوقي، جزاء ما وهب أمته من فن جميل، وشعر جليل أصيل.

***

أهم المراجع:

١- شوقي شاعر العصر الحديث للدكتور شوقي ضيف.
٢- أبي شوقي للأستاذ حسين شوقي.
٣- حافظ وشوقي للدكتور طه حسين .
٤- شعراء مصر وبيئاتهم للأستاذ العقاد.
٥- مسرحيات شوقي للدكتور محمد مندور.

الدكتور أحمد ضيف
وأوّلياته

هذا واحد من كبار روادنا الكبار، الذين سجَّل تاريخهم ملامح مضيئة في حياتنا الأدبية، ورسمتْ خطواتُهم علامات سبّاقة على مسيرتنا الثقافية.. فهو قد تفرَّد بعدد من الأوليات لم ينازعه فيها أحد من سابقيه، ولم يشاركه أحد من معاصريه.. ومع تفرد الدكتور أحمد ضيف بهذه الأوليات التي من شأنها أن تلفت الأنظار وتستوجب العرفان، عاش الرجل معظم حياته وكأنه في الظل، ثم مات وكأنه مضى إلى عالم النسيان.

وأُولى أوليات أحمد ضيف، أنه أول من اختارتهم الجامعة المصرية الأهلية من خريجي دار العلوم ليوفد في بعثة إلى أوروبا، وثانية هذه الأوليات، أنه أول مبعوث مصري إلى فرنسا لدراسة الأدب.. وثالثة هذه الأوليات، أنه أول مصري نال درجة الدكتوراه في الأدب من جامعة باريس.. ورابعة هذه الأوليات، أنه أول مصري درّس الأدب في الجامعة على الطريقة الجديدة.. وخامسة هذه الأوليات، أنه أول من ألف كتابًا في الدراسات الأدبية مُعَرِّفًا بما يمكن أن يسمى «النظرية الأدبية» ومبصرًا بالمناهج الحديثة في دراسة الأدب ونقده.. وسادسة هذه الأوليات، أنه أول

من ألف كتابًا في الأدب الأندلسي بشكل منهجي.. وسابعة هذه الأوليات، أنه أول من دعا إلى وجوب الاهتمام بالأدب الشعبي.

***

وبالإضافة إلى كل هذه الأوليات، كان أحمد ضيف من أوائل المنادين بالأدب القومي وبضرورة أن يعكس الأدب صورة المجتمع، وبوجوب اتضاح نفسية الأديب من خلال ما يبدع من أدب.. كما أنه من أوائل من أصّلوا المصطلحات النقدية وعَرّفوا ببعض المدارس الغَرْبية في مجال الدراسات الأدبية، وكان كذلك ممن شاركوا في الحياة الأدبية العامة إلى جانب اشتغالهم بالحياة الجامعية الخاصة.

وبعد هذا الإجمال نأتي إلى شيء من التفصيل فنقول:

إن أحمد ضيف وُلد في الإسكندرية سنة ١٨٨٠م وحين بلغ سن التعليم أُعد ليلتحق بالأزهر، وكانت أسرته ذات طابع ديني صوفي.. ومن الضروري أن يكون قد حفظ القرآن الكريم، وحَصَّل بعض العلوم ليلتحق بالمعهد العريق.. وفي الأزهر درس أحمد ضيف عدة سنوات مُحصِّلاً ما استطاع من العلوم الإسلامية واللغوية.. ثم التحق بدار العلوم. وأغلب الظن أنه درس على من كانوا يعلّمون بها علوم اللغة والأدب حينذاك، مثل الشيخ حمزة فتح اللَّه والشيخ حسين المرصفي. ويبدو أنه كان أكثر ارتباطًا بالشيخ محمد عبده، كما يدل على ذلك تخصيصه له بالذكر من بين أساتذته، حين شارك بعد ذلك في كتابة بعض الأعمال القصصية، التي

تحمل بعض ما يمكن أن يكون من ترجمته الذاتية.. فقد شارك الدكتور أحمد ضيف صديقه الفرنسي «بونجان» في كتابة قصتين كُتبتا بالفرنسية ونُشرتا في باريس، والأولى: «منصور - قصة طفل من مصر»، والثانية «منصور في الأزهر».. ويبدو أن الدكتور ضيف قد أمد صديقه الفرنسي ببعض ما أفاده في كتابة قصة ثالثة تُعدّ تكملة للقصتين السابقتين، فقد أخرج هذا الصديق الفرنسي قصة بعنوان «الشيخ عبده المصري».. وكما هو واضح من عنوانها فإن المقصود هو الشيخ محمد عبده صاحب الدور الكبير في الحياة الثقافية المصرية.. وكما هو واضح أيضًا فإن منصور هو الطفل والفتى أحمد ضيف.

***

وتخرج أحمد ضيف في دار العلوم سنة ١٩٠٩م، وأغلب الظن أنه كان متفوقًا، فاختارته الجامعة المصرية - التي كان قد مضى على افتتاحها نحو عام - لتوفده في بعثة إلى فرنسا لدراسة الأدب.. وفي فرنسا درس أحمد ضيف حتى نال دبلوم الآداب من جامعة باريس سنة ١٩١٤م، ثم نال الدكتوراه سنة ١٩١٧م. وكان موضوع رسالته هو «الشعر الغنائي والنقد عند العرب».. وقد عاصر ضيف في باريس الدكتور طه حسين وزامله لعدة سنوات، وإن كان ضيف قد سبقه إلى فرنسا بنحو خمس سنين .

وبعد إقامته في فرنسا والتي استمرت نحو تسع سنوات، عايش خلالها الحرب الكبرى الأولى، ركب الدكتور أحمد ضيف إحدى السفن

من مرسيليا قاصداً الإسكندرية، ولكن السفينة أصابها «طوربيد» في البحر فغرقت بمعظم ركابها، ولم ينج منهم إلا خمسة كان منهم الدكتور أحمد ضيف، الذي انتشلته سفينة حربية إنجليزية وأوصلته إلى الإسكندرية.

***

وبعد عودة الدكتور أحمد ضيف إلى مصر من فرنسا سنة ١٩١٨م، عين مدرسًا للأدب في الجامعة المصرية. فألقى على طلبته محاضرات مبشراً فيها بالمذهب الجديد في دراسة الأدب ونقده.. ثم جمع هذه المحاضرات وأخرجها في كتاب سماه «مقدمة لدراسة بلاغة العرب»، وكان ظهور هذا الكتاب سنة ١٩٢١م.. كذلك ألقى الدكتور على طلبته في الجامعة المصرية، محاضرات عن الأدب الأندلسي، ثم أخرجها في كتاب سنة ١٩٢٤م، وجعل عنوانه «بلاغة العرب في الأندلس».

وظل الدكتور أحمد ضيف يحاضر في الجامعة المصرية، إلى أن ضُمت إلى الحكومة سنة ١٩٢٥م، فحل محله الدكتور طه حسين الذي كان قد عاد إلى مصر سنة ١٩١٩، وعمل في الجامعة أولاً مدرسًا لتاريخ اليونان وأدبهم.. وبعد ضم الجامعة للحكومة انتقل الدكتور طه حسين مدرسًا للأدب مكان الدكتور أحمد ضيف. واقتضى هذا التغيير نقل الدكتور ضيف - في شبه تنحية - إلى مدرسة المعلمين العليا، التي ظل بها إلى سنة ١٩٣٢م، ثم نقل إلى دار العلوم، التي صار وكيلاً لها سنة ١٩٣٨م.. وبعد

إحالته إلى المعاش سنة ١٩٤٠م، أعيد الدكتور ضيف- ولعلها ترضية- إلى كلية الآداب أستاذاً متفرغًا، وظل بها إلى أن توفي سنة ١٩٤٥م.

***

وقد كان للدكتور أحمد ضيف نشاط أدبي مأمول، وخاصة عقب عودته من فرنسا. فقد كتب عدداً من المقالات الأدبية والنقدية، كما كتب بعض القصص العربية، وشارك في كتابة بعض القصص بالفرنسية. كذلك ترجم الدكتور ضيف مسرحية «هوراس» التي كتبها المسرحي الفرنسي الكبير «كورني».. وكانت كتابات ضيف الأدبية والنقدية تنشر في أهم الصحف والمجلات التي كانت معروفة في عهده، مثل السفور والمقتطف والهلال والرسالة.. وكان مقبلاً - في أول عهده- على الحياة الأدبية العامة والمشاركة في أنشطتها، ومن مظاهر ذلك انتخابه عضواً في مجلس إدارة «جماعة أبوللو» التي أسسها الدكتور أحمد زكي أبو شادي سنة ١٩٣٢م .

***

ولكن يبدو أن ظروف نقل الدكتور أحمد ضيف من الجامعة بالإضافة إلى ما أصابه من نقد لاذع على يد الدكتور طه حسين، الذي تحدث عن كتابه «بلاغة العرب في الأندلس» بقسوة شديدة وسخرية لاذعة لم يسلم منها كتاب ضيف الأول «مقدمة لدراسة بلاغة العرب»؛ أقول : يبدو أن ذلك كله قد أثَّر على نفسية الدكتور أحمد ضيف، وجعله أقرب إلى الزهد في الشهرة، وأدنى

إلى البعد عن الأضواء.. فلم يعد إلى تأليف كتب بعد كتابيه السابقين، ولم يتحمس كثيراً لمزيد من كتابة المقالات والقصص، ولا لمزيد من الترجمة عن الفرنسية.. وإنما عاش- بعد ما أصابه من صدمات- مقلاً من الكتابة غاية الإقلال، وكأنه زهد في الحياة الأدبية العامة، بل أوشك أن يزهد في الحياة الأكاديمية الخاصة، التي اكتفى منها بإلقاء ما كُلِّف به من محاضرات في المعلمين العليا أولاً، ثم في دار العلوم ثانيًا، ثم في كلية الآداب أخيراً.

***

وعلى الرغم من هذا الزهد في الشهرة وهذا الإقلال من الإنتاج، فالرجل صاحب كتابين رائدين مهمين: المجال الأول يمكن أن نسميه مجال «النظرية الأدبية»، والدعوة إلى التجديد في دراسة الأدب والنقد.. ويتمثل ذلك في كتابه «مقدمة لدراسة البلاغة العربية».. والمجال الثاني هو مجال «التأريخ للأدب الأندلسي»، والدعوة إلى دراسة هذا الأدب دراسة منهجية، تربط الإبداعات الأدبية الأندلسية بظروفها التاريخية والاجتماعية والنفسية، وتُعرِّف بكبار المبدعين من شعراء وناثرين أندلسيين، وبما لهم من إبداع متميز.. ويتمثل ذلك في كتابه الثاني «بلاغة العرب في الأندلس»..

***

أما الكتاب الأول «مقدمة لدراسة البلاغة العربية» والذي ظهر سنة ١٩٢١م، بعد أن ألقى الدكتور مادته على طلبته في الجامعة

المصرية، فأول ما يلاحظ عليه أنه قد استخدم مصطلح «بلاغة» في مكان مصطلح «أدب».. وقد أراد المؤلف من ذلك أن يوضح ابتداء أنه يتحدث عن جميل القول من شعر ونثر، ولا يتحدث عن الأدب بالمعنى العام الذي كان شائعًا من قبل وشاملاً للعلوم اللغوية والإنسانية.. ثم يلاحظ بعد ذلك، أن الدكتور ضيف قد عالج في هذا الكتاب قضايا في غاية الأهمية.. فقد عرض لتعريف الأدب- أو البلاغة كما سماه- فقال عن الأدب: «الكلام الفني الممتع، الذي يملأ نفس السامع وعواطفه، في أي موضوع كان وعلى أي معنى دلّ».. ثم عرض لدرس هذا الأدب ومناهجه، وصلة هذا الدرس بالاجتماع والتاريخ.. كذلك عرض للفرق بين الأدب وتاريخه، وإلى تقسيم الأدب إلى اجتماعي ووجداني.. ثم عرض للشعر الجاهلي وبعض أقوال المستشرقين بالشك في كثير من نصوصه.. ورفَضَ الدكتور ضيف مبالغة المستشرقين في هذا الشك، كما رفض اتهام بعضهم للخيال العربي بالضيق.. ومن أجمل ما التفت إليه الدكتور ضيف ما سمّاه «بِتَبِعَة» الكُتّاب والشعراء. وهو يقصد بها ما سُمّي بعد ذلك «بالالتزام»، الذي يعني مسئولية الأديب تجاه مجتمعه، ووجوب الإسهام في قضاياه بمواقف إيجابية يعكسها أدبه.. ويزيد من قيمة كلام الدكتور ضيف عن «تَبِعة» الأديب - أو التزامه- أنه لم يجعل هذا الالتزام قيدًا يحول دون حرية الأديب، بل نادى بتوفير الحرية وترك الحكم للمتلقين يميزون بين الطيب والخبيث.

ثم تحدث الدكتور عن النقد وحَدَّد طبيعته، مبينًا أنه فنٌّ يحكمه العلم، وأن أساسه القراءة والفهم والتحليل والحكم. ورفض أن يكون الحكم من الناقد مبنيًا على الرأي الشخصي والهوى الذاتي.

***

ثم عرض لتطور النقد في الغرب - وخاصة في فرنسا- فتحدث عن «سانت بيف» ونقده النفسي، وعن «تين» ونقده المعتمد على التعرف على ما أحاط بالمبدع من ظروف الزمان والمكان والجنس الذي ينتمي إليه. كما تحدث عن «برونتيير» وتأثره بمذهب النشوء والتطور الذي قال به «دارون» في علم الحياة.. ثم تحدث الدكتور ضيف عن «جول ليمتر» ومذهبه الانطباعي، وقوله بتقديم الأعمال الأدبية وفق ما تترك في النفس من أثر.

ثم انتقل الدكتور ضيف في كتابه إلى الحديث عن النقد عند العرب، مفرقًا بين النقد والبلاغة، وموضحًا أن العرب لم يهتموا كثيرًا بالنقد، وإنما اهتموا أكثر بالبلاغة.. وأشاد الدكتور ضيف لذلك ببعض النقاد العرب الذين لم يقفوا عند الجوانب البلاغية، وإنما اهتموا بالأمور النقدية، من أمثال القاضي الجرجاني والباقلاني.

***

أما الكتاب الثاني «بلاغة العرب في الأندلس» والذي ظهر سنة ١٩٢٤م، بعد أن ألقى الدكتور ضيف مادته على طلبته في الجامعة؛ فأول ما يلاحظ عليه وحدة الموضوع، بالإضافة إلى استخدامه لمصطلح «بلاغة» بمعنى «أدب»، كما حدث في الكتاب الأول.

وقد مَضَى الدكتور في كتابه الثاني هذا على طريقة منهجية طيبة وجديدة بالنسبة إلى سنوات تأليف الكتاب على الأقل.. فقد بدأ الدكتور ضيف بالحديث عن دخول العرب إلى الأندلس، واختلاطهم بأهلها، وما كان من توالي العصور الإسلامية في تلك البلاد، بدءاً من عصر الأمراء، وانتهاء بعصر بني الأحمر، مروراً بالدولة الأموية، وعصر الطوائف وعصر المرابطين وعصر الموحدين.. ثم تحدث الدكتور ضيف عن الحياة العقلية في الأندلس، واهتمام الأندلسيين بالعلوم والكتب، وعن انتشار اللغة العربية واشتغال غير العرب بها.. ثم تحدث عن الفنون في الأندلس، وعناية الأندلسيين بالنقش والتصوير والعمارة.. وأشار إلى نقل أوروبا للعلوم والفنون عن الأندلسيين.

***

ثم انتقل الدكتور ضيف إلى الحديث عن الغناء في الأندلس ومجالس الأدب هناك، وعن أثر ذلك كله في تطور أدب الأندلسيين.

وبعد هذه التمهيدات، وصل المؤلف إلى النثر في الأندلس، فتحدث عن أنواعه وأورد نماذج من كل نوع.

ثم تحدث عن الشعر، وعرض للتشابه بينه وبين شعر المشرق، وأبرزَ ابتكارات الأندلسيين، التي رآها تميز شعرهم عن شعر المشرقيين.. وأخيراً عرَّف الدكتور ضيف بطائفة من أدباء الأندلس، كأبي عامر بن شهيد، وبسط القول في شعره ونثره، وركَّز على ما كان له من أسلوب قصصي

تمثل في عمله المشهور: «رسالة التوابع والزوابع»، مبرزاً بعض آرائه في النقد كما تضمنتها رسالته القصصية.

ثم عَرَضَ الدكتور ضيف لابن زيدون ملمًّا بحياته وشعره ونثره مُعرِّفًا برسالتيه: الجدية والهزلية.

وبعد ذلك عرّف الدكتور ضيف بابن عبد ربه وابن درّاج وابن عبّاد وابن عمّار وابن وهبون وابن حمديس وابن بُرْد والأعمى التطيلي وابن هانئ وابن الحداد وابن خفاجة وابن سهل ولسان الدين بن الخطيب، محاولاً أن يكون الأدباء الأندلسيون الذين عَرَّف بهم موزعين على العصور الأدبية المختلفة، ومورداً ما اتسع له المقام من إبداعهم. وكأنه رأى فيهم نماذج لأدب فتراتهم وشواهد على عصورهم.

وأخيراً عرض الدكتور ضيف في كتابه لفن الموشحات، فتحدث عن نشأتها وما قاله ابن خلدون في «مقدمته» وابن سناء الملك في «دار الطراز» بشأنها.

وليس من شك في أن هذا الكتاب أول كتاب منهجي في دراسة الأدب الأندلسي.. ومع إجماله وعدم تعمقه، قد خطا الخطوة الأولى عن طريق دراسة هذا الأدب الإقليمي العربي المتميز، واحتل مكان الريادة في التأليف في هذا المجال.. تمامًا كما حدث بالنسبة للكتاب الأول، الذي سبق الدكتور ضيف- بكثير مما جاء فيه- كثيرين ممن جاءوا بعد ذلك وتحدثوا في الموضوعات التي تناولها.

***

أما سبق الدكتور ضيف إلى المناداة بالاهتمام بالأدب الشعبي، فقد بدأ منذ ظهور كتابه «بلاغة العرب في الأندلس» سنة ١٩٢٤م، فقد أشاد بالموشحات وبالأزجال التي تسربت إليها اللغة العامية، ثم قال: «وقد اكتفينا بالإشارة إلى هذا الشعر العامي، وإن كان جديراً بالعناية، لاحتوائه على صور النفوس العامة وبعض الآراء الاجتماعية، وأرجأنا تفصيل الكلام فيه إلى فرصة أخرى».

ثم خطا الدكتور ضيف خطوة أخرى في الدعوة إلى الاهتمام بالأدب الشعبي، وذلك حين كتب مقالات في المقتطف سنة ١٩٢٦م، عن «تاريخ الأدب في مصر» وأشار فيها إلى الشعر العامي.

ثم كتب الدكتور ضيف سنة ١٩٣٦م مقدمة لأول كتاب ظهر في مصر عن الأدب الشعبي، وهو كتاب ألفه حسين رياض ومصطفى الصباحي، وعنوانه «تاريخ أدب الشعب».

وفي هذه المقدمة أشاد الدكتور ضيف بالأدب الشعبي، وأخذ على السابقين عدم الاهتمام به. ثم سجل أن بعض ما كان لمصر منه- مثل قصة «معروف الإسكافي»، وقصة «عنترة»، وقصة «الزير سالم»- يُعَدّ أدبًا مصريًا يمتاز عن كل أنواع الأدب العربي في جميع البلدان التي كتب أهلها ونظموا بلغة العرب».

وأخيراً كتب الدكتور ضيف مقالاً في الهلال - في أخريات حياته- بعنوان «أدب العامة» أجمل فيه خصائص الإنسان المصري، وأوضح أن هذه الخصائص لم تجد متنفسًا لها إلا عند أدباء العامية.

والعجيب أن الدكتور أحمد ضيف الذي كان له كل هذه الأوليات، والذي بذل كل هذه الجهود، لم يُكتب عنه بعد وفاته شيء يقدره حق قدره، ويبرز ولو بعض إنجازاته ودوره، حتى في تلك المجلات التي كان ينشر بها أثناء حياته.. كذلك لم ينل الدكتور ضيف من الدراسات إلا بعض الشذرات أو الصفحات في بعض الرسائل الجامعية التي عرضت لتاريخ الدراسات الأدبية والنقدية.. ولولا كتاب صغير الحجم كبير القيمة أخرجه عنه الدكتور علي شلش سنة ١٩٩٢ مشكوراً وأفدتُ منه كثيراً؛ لأمكن القول بأن الدكتور أحمد ضيف «سقط سهواً» من ذاكرة التاريخ.

رحم اللّه هذا الرائد الكبير، صاحب العديد من الأوليات، والحائز على قصب السبق في كثير من المجالات.

***

أهم المراجع:

١- تقويم دار العلوم للأستاذ محمد عبد الجواد.

٢- أحمد ضيف للدكتور علي شلش.

٣- مقدمة لدراسة البلاغة العربية للدكتور أحمد ضيف.

٤- بلاغة العرب في الأندلس للدكتور أحمد ضيف.

٥- دراسة أدب اللغة العربية بمصر في النصف الأول من القرن العشرين، للأستاذ أحمد الشايب.

مصطفى صادق الرافعي..
بطل المعارك الأدبية

هذا الرائد الكبير من النجوم التي تألقت في سماء الحياة الأدبية في الثلث الأول من هذا القرن. وكان واحداً من حملة القلم العظام، الذين قدموا للأدب العربي آثاراً رائعة وإبداعات قيمة، أسهمت في تطوير الأدب الحديث بعامة، وكان لها أثرها الذي لا يجحد في تطوير النثر الفني بخاصة، وفي ازدهار شكل المقال بصفة أخص.

وإذا كان رواد أدبنا العظام قد انقسموا إلى مجددين ومحافظين، وإذا كان طه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل قد تصدروا المجددين، فإن الرافعي قد تصدر المحافظين.. وإذا كان المجددون منذ أوائل هذا القرن قد ولوا وجوههم جهة الغرب، ورأوا أن نهضة البلاد إنما تكون بما أخذ به في نهضته؛ فإن الرافعي - ومن أخذ طريقه- قد ولّى وجهه نحو الشرق، ورأى أن نهضة الأمة إنما تكون بالأخذ بما أخذ به السلف أيام ازدهار دولة العروبة والإسلام.. وقد ربح الأدب من هذا الاختلاف في وجهات النظر ربحًا عظيمًا، تمثل في النتاج الثري الذي أبدعه كل فريق، كما تمثل في حفظ

المجددين من الاندفاع والذوبان فيما هو غربي، وفي صون المحافظين من التجمد والانغلاق والوقوف فقط عند التراث العربي.. فكان حصاد الاختلاف بين المجددين والمحافظين لمصلحة الفكر ولخير الأدب، ولإنعاش حركة الثقافة في الأمة آخر الأمر..

***

وقد كان مذهب الرافعي في الفكر والأدب جميعًا منطلقًا من ظروف بيئته وروافد ثقافته، ومن طبيعته ومقومات شخصيته.. وإذا تتبعنا سيرته وخاصة في كتاب «حياة الرافعي» الذي ألفه تلميذه محمد سعيد العريان، وجدنا مصداق ذلك إلى حد كبير، فالرافعي مصري المولد والنشأة، ولكنه سليل أسرة من طرابلس الشام، هاجرت إلى مصر منذ أواخر العشرينيات من القرن الماضي. وهي أسرة عُرفت بالتدين والتفقه والاشتغال بالقضاء.

وكان والد مصطفى صادق الرافعي - الشيخ عبدالرازق- رئيسًا للمحاكم الشرعية في عدد من الأقاليم بمصر، ثم استقر في طنطا رئيسًا لمحكمتها الشرعية.

وقد ولد مصطفى صادق الرافعي في قرية بهتيم- إحدى قرى القليوبية - سنة ١٨٨٠، وكان مولده في هذه القرية لأن بها أسرة والدته التي آثرت أن تضع حيث أسرتها في بهتيم. ولكن نشأة الرافعي كانت في طنطا أغلب

السنوات، وإن عاش مع والده في دمنهور والمنصورة بعض تلك السنوات.. وعلى يد هذا الوالد الشيخ الفقيه القاضي تلقى مصطفى دروسه الأولى وحفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمدرسة دمنهور الابتدائية، وكان والده قد نقل إلى هذه العاصمة، ثم انتقل الصبي إلى مدرسة المنصورة حين نقل والده إلى عاصمة الدقهلية، ومن مدرسة المنصورة نال الرافعي الشهادة الابتدائية، ولم يُقَدَّر له أن يدرس المرحلة الثانوية، فقد مرض بعد قليل مرضًا أثَّر في سَمعه حتى انتهى به إلى الصمم، كما أثر في أحباله الصوتية حتى أوشك أن يحبس صوته، ولكن اللّه خفف عنه فاستطاع النطق، ولكن بصوت فيه آثار تلك العلة .

***

وقد عَوَّض الرافعي دراسته الرسمية التي لم يستطع إتمامها بدراسة شخصية استطاع أن يتبحر فيها، حتى وصل بجهده الذاتي - كما فعل العقاد- إلى أن يكون واحداً من كبار رواد الفكر والأدب في العصر الحديث.. وقد أعان الرافعي على تعليم نفسه واكتمال ثقافته العربية والأدبية، أن والده كانت له مكتبة عامرة تضم عيون كتب الفكر الإسلامي والتراث العربي، فاعتبرها الرافعي مدرسته وجامعته، وأقبل عليها بنهم، وحصَّل من علوم اللغة وفنون الأدب ومصادر التاريخ، ومذاهب الفكر ما جعل منه حُجة في كل ذلك.. ولعل عاهته وروح التحدي فيه، مما ضاعف من جهده في التحصيل واستكمال التثقيف الذاتي.. وقد ذكر بعض من

كانوا على صلة به أنه كـان يقرأ كل يوم ما لا يقل عن ثمانـي ساعات. بل قيل: إنه كـان لا يترك القراءة مـا وجد فـرصة إليهـا، كما كـان دائم حمل الكتب في غـدواته وروحـاتـه، فلا يُـرى غـالبًـا إلا حـامـلاً بعض الكتب والصحف.

***

واسـتطاع الرافـعي في أول شـبابه أن يـحصل علـى وظيفـة كـاتب بمحكمة طلخـا الشرعية سنة ١٨٩٩م، ثـم انتقل إلى محكمة إيتـاي البارود الشرعية.. وبقي مقـيمًا في طنطا، يذهب إلى عمله في هذا البلد أو ذاك، ثم يعود إلى بيـته في عاصمـة الغربية بعد الانتـهاء من عمله بعد الظـهر، وكان ينتهز الفـرصة أثناء رحلة الذهاب والعودة ليقـرأ وينتفع بساعات السـفر ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وكـان الرافعي مـوهبـة أدبيـة فذة، وبدأت تلك الموهبـة تظهـر في مجـال الشعر. فأخـذ يبدع وهو دون العشـرين قصائد ومـقطوعات على مذهب الشعـراء المحافظين الذي كان إمامهم البـارودي ومن أهـم تلاميذه حافظ.. وكـان الرافعي شديد الإعجـاب بالشاعرين.. ونشـر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٣م.. وواصل إبداع الشـعر فـأخرج الجزء الثـاني سنة ١٩٠٤م.. ثم نشر الجـزء الثالث سنة ١٩٠٦م.. وفـي سنة ١٩٠٨م أصدر الجـزء الأول من ديوان «النظرات».. وبهـذا تألق اسم الرافـعي كـشاعـر، وعُـرف مكانه بين الشعـراء المحـافظين المتمكنـين المقتـدرين.. وأثنى على

شعره عـدد من المفكرين والساسة والأدباء المرمـوقين، مثل الشيخ محمد عبـده والزعيم مصطفى كـامل والبارودي وحافظ إبراهيم.. ثم حـدث ما جعل الرافعي يتجه إلى النثر والتـألق فيه تألقًا يوشك أن يحجب تألقه في الشعر.. فقـد فتحت الجامعة الأهلية سنـة ١٩٠٨م، وأعلنت بعد فترة عن مـسابقـة لتأليـف كتـاب في تاريخ الأدب العربـي. فعكف الرافـعي على تأليف كتاب في هذا المجـال، واستعان بمكتبـة بيته العامرة، ومكتبـة السيد البدوي ومكتبة القـصبي- وهما مكتبتان كانتـا من أغنى المكتبات بالكتب والمخطوطات- ومـا لبث الرافعي أن أخـرج كتابه «تاريـخ آداب العرب» سنة ١٩١١م، فكان بمقاييس عصره كتابًا رائدًا في التأريخ للأدب العربي. ونال به الرافعي مكانة مـرفوعة، وعـرفته الحيـاة الأدبية من خلاله مـؤرخًا للأدب ومؤلفًا فيه، بعد أن عرفتـه شاعرًا ينافس على إمارته كبار الشعراء من معاصريه.

***

وبعد رحلتـه إلى لبنان سنة ١٩١٢م، أخرج الرافـعي كتـابه «حديث القمر» من وحي تجربة عاطفية كان الطرف الآخر فيها حسناء لبنانية.

وأثناء الحـرب العالمـية الأولى، ومن وحي مـا أصـابت به الناس من شقـاء وتعاسـة، أخرج الرافـعي كتـاب «المساكين» الذي يُعـد كتابه الـنثري الفني الثاني.. كل هذا لم يترك الرافعي الشعر، وإنما كان يبدعه من حين إلى آخر، كما كان يهتم بشكل الأناشيـد الوطنية التي أبدع منها عددًا غير قليل.

كما كان يهتم في فترة من الفترات بنظم قصائد مدح في الملك فؤاد ينشرها في المناسبات المختلفة، وكان يطمح إلى أن يكون شاعر الملك كما كان شوقي من قبل شاعر الخديوي.. والذي يستحق الوقوف عنده هو تلك الأناشيد التي يأتي في مقدمتها نشيد «اسلمي يامصر» الذي كان من وحي ثورة سنة ١٩١٩م، والذي أهداه الرافعي إلى سعد زغلول سنة ١٩٢٣م.

***

وحين أخرج الدكتور طه حسين كتابه «في الشعر الجاهلي» سنة ١٩٢٦م، تصدى له الرافعي بمقالات حادة نشرها أولاً في صحيفة «كوكب الشرق»، ثم جمعها مع مقالات أخرى تتناول قضية القديم والجديد - وجعل كل ذلك في كتاب باسم «تحت راية القرآن».. وقد مثَّلَتْ تلك المقالات واحدة من أكبر معارك الرافعي الأدبية، كما مثلت طريقته في الدفاع عما يؤمن به، وفي الهجوم على ما ينكره من غيره.

ثم نشر الرافعي طبعة ثانية من كتابه «إعجاز القرآن» الذي كان قد أخرجه سنة ١٩١٢م وجعله بمثابة الجزء الثاني لكتابه «تاريخ آداب العرب».. وهذه الطبعة الجديدة من كتاب «إعجاز القرآن» قد نُشرت على نفقة الملك فؤاد تقديراً للرافعي ومكافأة له على مدائحه، وقد زُيِّنَتْ هذه الطبعة بتقريظ من سعد زغلول.. فكان ظهور هذا الكتاب بهذا الشكل سببًا لمعركة ثانية من معارك الرافعي، كانت هذه المرة مع العقاد.. فقد نقد العقاد كتاب الرافعي، بل أنكر أن يكون التقريظ الذي عليه من عمل سعد زغلول،

واتهم الرافعي بكتابة التقريظ ونسبته إلى سعد.. فثارت ثائرة الرافعي وكتب سلسلة من المقالات تحت عنوان «على السَّفُّود» وهو عنوان كان قد بدأ يكتب تحته مقالات في نقد عبداللّه عفيفي الذي كان ينافسه الرافعي على لقب شاعر الملك.. ثم جمعت هذه المقالات- وأهمها المقالات المتصلة بنقد العقاد- في كتاب تحت العنوان نفسه «على السفود».. والسفود هو عود الحديد الذي يُشْوَى عليه اللحم.. وهكذا أشار الرافعي إلى أنه لا ينقد فقط، وإنما يشوي ويُوجع ويكاد يحرق.

***

وليس من شك عندي في أن هذا النثر النقدي الحاد والمملوء بالتجاوز، يمثل الجانب السلبي من نتاج الرافعي. وخير منه وأبقى على صاحبه وعلى الأدب العربي، هذا النثر الفني الإبداعي الذي كَتَبَ منه خمسة كتب، منها أربعة تتصل بعاطفة الحب، قد مضت الإشارة إلى واحد منها، وهو «حديث القمر». أما الثلاثة الأخرى فهي «رسائل الأحزان»، ثم «السحاب الأحمر»، ثم «أوراق الورد».. وقد جاءت هذه الكتب الثلاثة نتيجة لتجربة عاطفية كانت للرافعي مع الأديبة اللبنانية «مَيّ زيادة».. فقد كان الرافعي ضمن من ترددوا على «صالونها» الأدبي الذي كان يتردد عليه كبار الأدباء والمفكرين في القاهرة، ويبدو أنه تعلق بها وأحبها، وحسب أنها كذلك تبادله نفس العاطفة. ولكن يبدو أيضًا أنها كانت تَعُدُّه مجرد صديق وأحد زوار ندوتها الكبار فحسب.. فلما أحس بذلك ثار لكرامته وقاطعها

مع تعلقه الشديد بها. وبدأ يكتب مشاعره وخواطره ويسجل أفكاره المتصلة بهذه التجربة، فكان حصاد ذلك الكتب الثلاثة.

***

وهكذا كَتَبَ الرافعي خمسة كتب من النثر الفني هي «حديث القمر» ثم «المساكين» ثم «رسائل الأحزان» ثم «أوراق الورد».. كل هذا بالإضافة إلى كتابيه في النثر التأليفي، وهما «تاريخ آداب العرب» و«إعجاز القرآن»، وبالإضافة أيضًا إلى مقالاته العديدة التي خاض بها معاركه الأدبية، والتي جمع أهمها في كتابين هما: «تحت راية القرآن» و«على السَّفُّود».

على أن أعظم وأجمل ما كتب الرافعي - في رأيي- هو مقالاته التي كتبها في مجلة الرسالة بعد أن ارتبط بها وأصبح من كتابها الأساسيين منذ سنة ١٩٣٤م إلى آخر حياته سنة ١٩٣٧م.

ففي هذه المقالات نجد الرافعي بعد نضج فكره، واعتدال توجهه، واتضاح أهم سمات أسلوبه، وإن كان كثير من هذه السمات يبدو في كتبه الثلاثة التي كتبها من وحي تجربته مع «مَيّ».. أما مقالاته الأخرى التي كتبها في معاركه- وخاصة مع طه حسين والعقاد، فهي مقالات تمثل الصورة السلبية لأدب الرافعي، تلك الصورة التي من معالمها الحدة في الحوار، والتجاوز في الرد، والإساءة إلى الخصم. كما تمثل المراوغة والمغالطة والتجني، وغير ذلك مما لا يقبله النقد الموضوعي ولا الحوار

الأدبي المتحضر.. وربما كان لروح الفترة التي كتب فيها الرافعي هذه المقالات ما يفسر ذلك وما قد يشفع- ولو بعض الشفاعة - للرجل. فقد كانت تلك الفترة فترة احتلال أولاً ثم ثورة ثانيًا، ثم تحزُّب وصراع سياسي انعكس على الحياة الفكرية والأدبية آخر الأمر.. وربما كان من أسباب ما نرى من سلبيات في مقالات الرافعي النقدية التي مثلت معاركه الأدبية، تلك العاهة التي حالت بين الرافعي وسماع من يحدثونه، والتي لم تؤثر في سمعه فحسب، وإنما تجاوزت إلى التأثير في صوته أيضًا.. وقد يُضاف إلى هذا السبب سبب أخر وهو وقوف الرافعي في دراسته الرسمية عند نهاية المرحلة الابتدائية، وحَمْل الظروفَ له على أن يحرم من مواصلة التعليم حتى يتم مرحلتيه الثانوية والعالية، فضلاً عن العليا التي ظفر بها عدد من معاصريه ومنافسيه. فهذا كله جعله يحاول دائمًا أن يؤكد ذاته ويثبت تفوقه للآخرين، وكأنه يقول لهم: إنه رغم عاهته فهو أقوى منهم وأصلب، وأنه رغم عدم إتمام دراسته فهو أعلم منهم وأحكم، وأنه في كل معركة البطل والفارس والمنتصر، حتى ولو كان الطريق إلى الانتصار هو طريق العنف والبطش وإسالة الدماء.

***

ولذا أقول: إن أهم ما خلف الرافعي هو تلك المقالات التي أبدعها في مجال النثر الفني وخاصة مقالاته التي نشرها في مجلة الرسالة، والتي جمعت بعد ذلك في ثلاثة مجلدات تحت عنوان «وحي القلم».. فهذه

المقالات تعالج موضوعات أدبية واجتماعية وإنسانية بعيدة عن الحدة والغلو أولاً، وتأخذ وجهة ترسيخ القيم الإسلامية والحضارة العربية ثانيًا.. وهي إلى جانب ذلك تؤكد دور الرافعي في تطوير النثر الفني في العصر الحديث، كما تؤكد أن للرافعي وجهة فنية وطريقة ذاتية.

أما وجهة الرافعي، فهي الوجهة الأسلوبية، التي عُرف بها المنفلوطي وطه حسين والزيات، تلك الوجهة التي تعني بالبيان وروعته وبالأسلوب وجاذبيته، وتوظف من أجل تحقيق ذلك عناصر وأدوات فنية تختلف من كاتب إلى آخر، كل ذلك دون إهمال للجانب الفكري على حساب الجانب الأسلوبي.

وأما طريقة الرافعي، فهي التي أسميها طريقة «البيان المقطر». وأقصد بهذا أن الرافعي في أسلوبه يعتمد على الناحية البيانية، ويهتم كثيراً بجمال الصياغة. ثم إن بيانه ليس البيان القريب التناول، البسيط العناصر، الهيّن الأداء، وإنما هو بيان فيه بُعْد وتركيب وجهد، حيث يجنح صاحبه إلى اعتصار المعاني وتوليد الأفكار ومزج الخواطر، وتكثيف الأداء، من خلال مجازات مركبة واستعارات بعيدة، وكنايات خفية، حتى يأتي بيانه أشبه بعملية تقطير لألوان من الزهور والورود والرياحين، حين تنتج بتقطيرها عطراً مركبًا مكثفًا يحتاج في التعرف عليه إلى مزيد من التأمل وكثير من الدربة ودقة الإحساس وبُعد النظر وعمق الخبرة.

***

ولعل هذا الجزء من مقال الرافعي يدل على وجهته وطريقته في كتابته.. والمقال بعنوان «حقيقة المسلم» وكان قد نشر في مجلة الرسالة. وفيه يقول:

«لا يَعْرِف التاريخ غير محمد ﷺ، رجلاً أفرغ اللَّه وجوده في الوجود الإنساني كله، كما تُصَبُّ المادة في المادة لتمتزج بها فتحولها فتُحدث منها الجديد، فإذا الإنسانية تتحول به وتنمو، وإذا هو ﷺ وجودٌ سارٍ فيها، فما تبرح الإنسانية تنمو به وتتحول».

«كان المعنى الإنساني في هذه الإنسانية كأنما وَهَنَ من طول الدهر عليه يتحيّفه ويمحوه ويتعاوره بالشر والمنكر، فابتعث اللَّه تاريخ العقل بآدم جديد بدأتْ به الدنيا تَطَوُّرَها الأعلى من حيث يرتفع الإنسان على ذاته، كما بدأتْ من حيث يوجد الإنسان في ذاته. فكانت الإنسانية - دَهْرَهَا- بين اثنين: أحدهما فتح لها طريق المجيء من الجنة، والثاني فتح لها طريق العودة إليها. كان في آدم سِرٌّ وجود الإنسانية، وكان في محمد سِرٌّ كمالها».

«ولذا سمى الدين بالإسلام؛ لأنه إسلامٌ النفس إلى واجبها، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية. كأن المسلم ينكر ذاته فيسلمها إلى الإنسانية تصرّفها وتعتملها في كمالها ومعاليها، فلا حظ له هو من نفسه يمسكها على شهواته ومنافعه، ولكن للإنسانية به الحظ».

***

«وما الإسلام في جـملته إلا هذا المبدأ، مبدأ إنكار الذات وإسـلامها طائعة على المنشط والمكره لفروضها وواجباتها. وكلما نكَصَتْ إلى منزعها الحيواني، أسلمها صاحبـها إلى وازعها الإلهي. وهو أبدًا يروضها على هذه الحركـة مادام حـيًا، فـينتزعـها كل يوم من أوهام دنيـاها ليـضعهـا بين يدي حقيقتـها الإلهية، يروضها على ذلك كل يوم وليلة خمس مـرات مسماة في اللغة خمس صلوات».

***

أهم المراجع:

١- حياة الرافعي للأستاذ محمد سعيد العريان .

٢- وحي القلم للأستاذ مصطفى صادق الرافعي .

٣- تحت راية القرآن للأستاذ مصطفى صادق الرافعي .

٤- على السفود للأستاذ مصطفى صادق الرافعي .

أحمد حسن الزيات
مهندس البيان

هذا رائد من الرواد العظام في أدبنا الحديث، وعَلَمٌ من الأعلام الشامخة في نثرنا المعاصر، بل هو واحد ممن عملوا على ازدهار هذا الفن ودفعه في هذا العصر ليسبق الشعر.. والذين عملوا على تحقيق هذا الازدهار والوصول بالنثر إلى هذا السبق- ربما لأول مرة في تاريخ أدبنا العربي- هم هذه الكوكبة الموهوبة المثقفة المتفتحة، من أمثال المنفلوطي وطه حسين والرافعي، ثم محمد حسين هيكل والعقاد والمازني.. وقد كان من مظاهر هذا الازدهار انقسام هؤلاء الرواد في توجههم إلى اتجاهين فنيين، أولهما الاتجاه الأسلوبي، الذي مضى فيه المنفلوطي وطه حسين والزيات والرافعي، ثم الاتجاه الفكري، الذي سار فيه العقاد وهيكل والمازني.. كذلك كان من مظاهر هذا الازدهار والسبق، تميز كل واحد من الأسلوبيّن والفكريّن بطريقة خاصة في أدائه الفني، على الرغم من اشتراكه مع بقية رفاقه من أصحاب اتجاهه في الخطوط العامة لهذا الاتجاه.. ثم كان من مظاهر هذا الازدهار والسبق كذلك، تعدد أشكال النثر وفنونه تعدداً غير

مسبوق ؛ حيث شمل المقالة التي انتشرت، والقصة التي تميزت، والرواية التي تأصلت، والترجمة الذاتية، واليوميات التي بدأت .

***

ويأتي الزيات متألقًا بين الكتاب الأسلوبيين أولاً، ومتفرداً بطريقته الفنية الخاصة بين أصحاب هذا الاتجاه ثانيًا، ثم علمًا خفاقًا بين كُتّاب المقال بكل ألوانه آخر الأمر.. وطبيعي أن يكون توجه الزيات إلى النزعة الأسلوبية وتفرده بطريقته الفنية، ثم تفوقه إلى درجة أن يكون من الرواد العظام في الأدب العربي الحديث، ومن الأعلام الشامخة في النثر المعاصر؛ طبيعي أن يكون ذلك كله نتيجة - بعد الموهبة الفذة- لثقافة أدبية موسعّة وتجارب حياتية منوعة وممارسات إبداعية جادة.. ولذا يحسن قبل الحديث عن اتجاه الزيات وطريقته، أن نُلمّ بروافد ثقافته ومسيرة حياته فنقول: إن أحمد حسن الزيات ولد سنة ١٨٨٥م في قرية دميرة، إحدى قرى مركز طلخا. وكان مولده كما كانت نشأته في أسرة ريفية متوسطة، فيها روح دينية ولها نزعة أدبية شعبية. وقد بدأ تعليمه بحفظ القرآن الكريم كمعظم أبناء القرى في تلك السنوات. وقرأ وهو في مرحلة الكُتّاب بعض السير الشعبية التي كان يحبها والده وصحبته، كما قرأ بعض المدائح النبوية التي كانت تهتم بها قريته، ومن هنا تعلق بالأدب في سنه المبكرة، وبدأ أول الأمر يحب الشعر، حتى لقد كافأه والده بإهدائه ديوان المتنبي، فزاد تعلقه بالشعر وكتب أولى محاولاته الإبداعية بعرض بعض قصائده قبل التحاقه بالأزهر.. وفي نحو

الثانية عشرة وفد على القاهرة ليتعلم في الأزهر، فتردد على الحلقات التي تدرس علوم الدين وفروع اللغة، ومال أكثر إلى حلقات الأدب، التي كان يشرح في بعضها الإمام محمد عبده كتابي «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»، كما كان يدرس في بعضها الشيخ سيد المرصفي كتاب «الكامل» و«حماسة» أبي تمام و«مفضليات» الضبِّي.. وتَعَرَّفَ الزيات أثناء الدراسة بالأزهر على طه حسين ومحمود زناتي، وجمعت بين الثلاثة الموهبة الأدبية والنزعة الفنية، وكثر تردده مع صاحبيه على دار الكتب.. وحين فتحت الجامعة الأهلية سنة ١٩٠٨م التحق بها الزيات مثل طه حسين، واستمع إلى المحاضرات التي كان يلقيها المستشرقون بها من أمثال «نللينو» و«جويدي» و«سانتللانا».. ونال الزيات الليسانس من الجامعة سنة ١٩١٢م. وكان قد عمل مدرسًا للغة العربية في مدرسة «الفرير» الفرنسية منذ سنة ١٩٠٧م، وكان عمله في هذه المدرسة فرصة ليبدأ تعلم اللغة الفرنسية التي واصل تعلمها حتى أتقنها.. وظل مدرسًا «بالفرير» حتى سنة ١٩١٤م، ثم انتقل إلى التدريس لطلبة «البكالوريا» بمدرسة مصرية كان اسمها «الإعدادية الثانوية»، والتقى في هذه المدرسة بزملائه العقاد والمازني وأحمد زكي ومحمد فريد أبو حديد، الذين كانوا ضمن هيئة التدريس.. وظل الزيات يعمل «بالإعدادية الثانوية» حتى سنة ١٩٢٢م، وأثناء عمله بها كان من المشاركين- بالكتابة وشحن الروح المعنوية- في ثورة ١٩١٩م .

***

وبعد الثورة وفي سنة ١٩٢٢م، اختير الزيات أستاذًا للأدب العربي في الجامعة الأمريكية، فأثبت في هذا الموقع جدارة فائقة ونال سمعة طيبة. والتحق في السنة نفسها بالحقوق الفرنسية، وقضى بها سنتين من الثلاث المطلوبة لنيل الليسانس، ثم قضى السنة الثالثة في باريس ليكمل دراسته القانونية، ونال الليسانس سنة ١٩٢٥م.. وفي باريس حصّل الكثير من الثقافة الفرنسية وخاصته في مجال الأدب، إلى جانب ما حصّل من الثقافة القانونية.

وهكذا جمع الزيات إلى ثقافته الأصيلة العربية، ثقافة ثرية غربية، كما جمع بين التعلم في الأزهر على أيدي شيوخ أجلاء، وبين التلقي في الجامعة الأهلية عن بعض المستشرقين المرموقين. ومزج بين الدراسات اللغوية والأدبية والدراسات القانونية والتشريعية.

وقد أضيف إلى ذلك كله تعرفه عن قرب على بعض الأقطار العربية ذات التاريخ القديم والثقافة الأدبية الغنية. فقد اختير الزيات سنة ١٩٢٩م ليكون أستاذًا للأدب العربي في دار المعلمين ببغداد، وظل بها إلى سنة ١٩٣٢م. وهناك التقى وتعرف بعديد من رجال الفكر واللغة والأدب، وشارك في كثير من الأنشطة الأدبية والثقافية المختلفة، ونال مكانة مرموقة وازداد شهرة وتألقًا .

***

وبعـد عودته من العـراق، لم يشأ الزيات أن يرتبط بمنصب، وإنمـا اتجه إلى الصحافة الأدبية، فأنشأ مجلة «الرسالة» سنة ١٩٣٣م، وظلت تصدر حتى سنة ١٩٥٣م. وكانت أقـوى مجلة أدبية ظهرت حـتى ذلك التاريخ في الوطن العربي كله، كما كانت أوسع مجلات الأدب والثقافة انتشاراً وأبعدها تأثيراً.. وإلى جانب «الرسـالة» أنشأ الزيات مجلة «الرواية» التي كـانت تختص بالفن القصصي تأليـفًا وترجمةً ودراسـةً، والتي ضمت بعد فترة إلى مـجلة الرسالة التي أصبحت تسمى «الرسالة والرواية».. وظل الزيات يخرج مجلته أكثر من عشرين عـامًا، يمولها ويشرف على تحريـرها وتوزيعها، وكأنه مؤسـسة كاملة، تقدم للعالم العـربي من أقصاه إلى أقصـاه زادًا ثقافيًا وأدبيًا أصـيلاً ومتطوراً، شـارك في النهوض بالمسـتوى الأدبي والثـقافـي للأمة العـربية، وربط بينهـا، وقرَب بين أذواق بنـيها، وخـرّج الكثيـرين من أدبائها، فـلا نكاد نجد كـاتبًا أو شاعراً في عصرنا الحاضر - ممن بدءوا حياتهم الأدبية في الثلاثينيات- لم يُفد من «الرسالة» ولم يتأثر بجهود الزيات .

وبعد احتـجاب «الرسالة»- لظروف اقتصـادية قاهرة- تولى الزيات رئاسة تحرير مـجلة الأزهر، وظل يعمل في هذا الموقع من سنة ١٩٥٩م إلى وفاته. وعمـل عضواً بالمجمع اللغـوي منذ سنة ١٩٤٨م، ونال جائزة الدولة التقـديرية سنة ١٩٦٢م.. وعاش آخـر سنواته في دعة وسلام حـتى لقي ربه في شهر يونيو سنة ١٩٦٨م .

***

وللزيات تراث أدبي تأليفي وإبداعي قيم، منه: كتابه «تاريخ الأدب العربي»، وكتابه «في أصول الأدب»، وكتابه «دفاع عن البلاغة»، ثم ترجمته - عن النص الفرنسي- لرواية الكاتب الألماني «جوته» المسماة «آلام ڤرتر» وترجمته لرواية الأديب الفرنسي «لامارتين» المسماة «رفائيل»، وأخيراً كتابه «مختارات من الأدب الفرنسي- قصائد وأقاصيص».

ولكن أعظم أثر أدبي للزيات- في رأيي- هو مجموعة مقالاته التي كان يفتتح بها كل عدد من أعداد رسالته. وهذه المقالات- التي كانت تطالع القراء كل أسبوع في صدر كل عدد من «الرسالة»- قد جُمعت في مجلدات أربعة، كما أن الرسالة التي استمرت أكثر من عشرين عامًا قد ضُمت في أربعين مجلداً.. وللزيات علاوة على هذه الأجزاء الأربعة التي تضم مقالاته الافتتاحية للرسالة، مقالات أخرى نشرها في غير الرسالة بعد إغلاقها.. وهذه المجموعة من المقالات قد جمعت في مجلد خامس بعنوان «في ضوء الرسالة».

وتأتي أهمية مقالات الزيات من كونها تمثل أغزر كتاباته، كما تمثل إسهامه الواضح في النهوض بفن المقال أولاً، ثم تحدد وجهته النثرية وطريقته الفنية ثانيًا.

أما وجهته النثرية فهي - كما قلت من قبل- الوجهة الأسلوبية، التي اتجه إليها قبله المنفلوطي، ثم اتجه إليها معه طه حسين والرافعي، وهي الوجهة التي تقابل الوجهة الفكرية، التي اتجه إليها أولاً لطفي السيد، ثم أصّلها من بعده العقاد وهيكل والمازني.

وأما طريقة الزيات الفنية ، فهي – كما أسميها– طريقة البيان المنسّق أو البيان «المهندَس».. وذلك أن الزيات كان يميل في أسلوبه إلى الناحية البيانية ويجعلها في المحل الأول، كما أن بيانه كان يقوم على التنسيق في الناحية اللغوية، وعلى ما يشبه الهندسة في الناحية التعبيرية. فالجملة في مقالاته تعادل الجملة غالبًا، والفقرة توازي الفقرة كثيراً، بل الكلمة تقابل الكلمة في أغلب الأحيان.. ومن هنا يتألف من الكلمات والجمل والفقرات ما يشبه اللوحة التعبيرية، التي تتقابل خطوطها وتتعادل مساحاتها وتتوازن ألوانها، وكأنها لوحة هندسية ترسم على مسطح مقسّم إلى مربعات، حتى لا ينحرف خط أو تزيد مساحة أو يجور لون.

والزيات يسلك إلى تحقيق ذلك طريق استخدام بعض المحسنات، ولكن في مهارة فائقة وشفافية شائقة، بحيث لا يشعر القارئ بافتعال التحسين أو تعمد التنسيق، وبحيث لا يهبط الأسلوب بسبب ما هو فاقع أو ثقيل من ألوان الهندسة والتجميل.. وبعض المحسنات التي يوظفها الزيات من النوع المعنوي كالمقابلة والمطابقة وحسن التقسيم، وبعضها من النوع الصوتي كالسجع والجناس وما يمنح الأسلوب بعض الإيقاع والتنغيم. وفي كل الأحوال يأتي استخدام الزيات لهذه المحسنات المعنوية واللفظية على كثير من الدقة والمهارة، بحيث يبدو الجمال في الأسلوب وكأنه جمال خِلْقِي طبعي، وبحيث يظهر التنسيق وكأنه أمر عفوي وتلقائي، لا جهد فيه للكاتب، ولا تعمد له من المبدع .

وهكذا يحس قـارئ مـقـالات الزيات أنه يكاد يكون أمـام عـمل هندسي مصمم بإحكام، ومقسم بدقة وفنية ونظام، قد اعتنى صاحبه تقريبًا بالحرف والمقطع والكلمة، مثـل عنايته بالجملة والعبـارة والفقرة، فلا يكاد يتنافـر حرف مع حرف، ولا يتـصادم مـقطع مع مـقطع، ولا تخفّ كلمة وتـثقل أخـرى، ولا تطول عبـارة وتقصر عـبارة، ولا يوضع جزء من الجملة «نشازًا» دون جزء آخـر يقابله ويعادله، ويكون معه كلاً جماليًا أساسه التناسق والتناغم والتوافق .

***

ولعل هذا الجزء من مقـال للزيات بعنوان «أوروبا والإسلام» يوضـح ما سبق.. يقول الزيات:

«شيَّعَ الناس بالأمس عـامًا قالوا: إنه نهـاية الحرب، واستقـبلوا اليوم عامًا يقولون : إنه بداية السلم. وما كانت تلك الحرب التي حسبوها انتهت، ولا هذه السلم التي زعـموها ابتدأت، إلا ظلمـة أعقبـها عـمى، وإلا ظلامًا سيعقبه دمار».

***

«حاربَت الديمقراطية وحليفتها الشيوعية عدوتهما الدكتاتورية، وزعمتا للناس أن أولاهمـا تمثل الحـرية والعدالة، وأخـراهمـا تمثل الإخاء والمسـاواة، فالحرب بينهما وبين الدكتاتورية التي تمثل العلو في الأرض والتعصب للجنس والتطلع إلى الـسعـادة، إنما هي حـرب بين الخـيـر والشـر، وصـراع بين الحق

والباطل. ثم أكدوا هذا الزعم بميثاق خطّوه على مياه «الأطلسي»، واتخذوا من الحريات الأربع التي ضمنها هذا الميثاق مادة للدعاية، شغلت الإذاعة والصحافة والتمثيل أربع سنين كوامل، حتى وهم ضحايا القوة وفرائس الاستعمار، أن الملائكة والروح يتنزلون في كل ليلة بالهدى والحق على روزفلت وتشرشل وستالين، وأن اللّٰه الذي أكمل الدين وأتم النعمة وختم الرسالة، قد عاد فأرسل هؤلاء الأنبياء الثلاثة في واشنطن ولندن وموسكو، ليدرأوا عن أرضه فساد الأبالسة الثلاثة في برلين وروما وطوكيو. وعلى هذا الوهم الأثيم بذلت الأمم الصغرى للدول الكبرى قسطها الأوفى من الدموع والدماء والعرق».

«ثم تمت المعجزة، وصُرِع الجبارون، ووقف الأنبياء الثلاثة على رءوس الشياطين الثلاثة يهصرون الأستار عن العالم الموعود، وتطلعت شعوب الأرض إلى مشارق الوحي في الوجوه القدسية، فإذا اللحى تتساقط والقرون تنتأ، والمسابح تنفرط والمسوح تنهتك، وإذا التسابيح والتراتيل عواء وزئير، والوعود والمواثيق خداع وتغرير، وإذا الديمقراطية والشيوعية والنازية والفاشية كلها تترادف على معنى واحد، هو استعمار الشرق واستعباد أهله».

«وإذن برح الخفاء وانفضح الرياء، وعادت أوروبا إلى الاختلاف والاتفاق على حساب العرب والإسلام».

هذا هو الزيات، وهذا هو أثره الكبير في ريادة أدبنا الحديث بعامة، وفي نهضة النثر بخاصة، وفي ازدهار فن المقال بصفة أخص.. وغني عن البيان أن

وجهة الزيات الأسلوبية وطريقتـه الفنية يمكن أن تقدم أعظم الفائدة إلى كل من يريد أن يصقل قلمه ويُحسِّن كَلِمه ويسمو بأسلوبه.. وأثر الزيات في ذلك كأثر رفاقه من الكتاب الأسلوبيين، الذين لا غنى عن إبداعـاتهم للمتأدبين والمحررين والمشتغلين بالكلـمة العـربية الجليلـة، ومن يريدون أن يبدعـوا نثـراً فنيًا بلغـتنا الجميلة.

أهم المراجع:

١- قمم مصرية للدكتورة نعمات أحمد فؤاد .
٢- الزيات والرسالة للدكتور محمد سيد محمد .
٣- أحمد حسن الزيات للدكتور علي محمد الفقي.
٤- النثر العربي المعاصر للأستاذ أنور الجندي.
٥- أحمد حسن الزيات للدكتور محمد جاد البنا .
٦- وحي الرسالة للأستاذ أحمد حسن الزيات .

عبد الرحمن شكري
رائد التجديد الشعري

هذا الشاعر الرائد أحد ثلاثة من الشعراء المصريين المعاصرين، الذين مثلوا اتجاهًا شعريًا متميزًا، وكان لهم أثر كبير في نهضة الشعر المصري بخاصة، وفي تطوير الشعر العربي الحديث بعامة.. والشاعران الآخران هما عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني.. أما هذا الاتجاه الشعري الذي مثله شكري وصاحباه، والذي اعتبره كثير من النقاد مدرسة شعرية من مدارس الشعر العربي، فهو الاتجاه الذي أسميه «التجديدي الذهني»، وهو الذي ظهر في مطالع هذا القرن كرد فعل للاتجاه «المحافظ البياني»، الذي ظهر في أواخر القرن الماضي، والذي كان رائده البارودي، كما كان قمته شوقي.

وإنما أميل إلى تسمية اتجاه شكري وصاحبيه باسم الاتجاه «التجديدي الذهني»، لأنه اتجاه أخذ ابتداء طريق التجديد، ولأنه اهتم في المقام الأول بالفكر ومعطيات الذهن.

***

وقد شاع بين النقاد ومؤرخي الأدب أن يسموا اتجاه شكري وصاحبيه باسم «مدرسة الديوان». وأساس هذه التسمية - التي سبق بها

الناقد الراحل الدكتور محمد مندور- أن معظم مبادئ هذا الاتجاه الشعري، قد تضمنها كتاب «الديوان»، الذي اشترك في تأليفه العقاد والمازني، والذي ظهر سنة ١٩٢١م. ومع أن هذه التسمية لها ما يسوغها، فإنني لا أميل إليها، وأوثر ألاّ أسمي بها اتجاه شكري وصاحبيه؛ وذلك لأسباب من أهمها: أن كتاب «الديوان» قد اشتمل على نقد لاذع قد تناول به المازني زميله شكري، بل إن هذا النقد قد بالغ فيه كاتبه حتى اتهم شكري بالجنون، فضلاً عن الاتهام بالسرقة والسطو على بعض الأشعار الأجنبية.. وليس من الملائم - في نظري- أن يسمى الاتجاه الشعري الذي يعد شكري واحداً من كبار أعلامه، باسم كتاب حوى نقداً لشعره، وتجريحًا لشخصه، وانتقاصًا لفنه .

***

ومهما يكن من أمر، فقد كان شكري من أسبق الرواد دعوة إلى التجديد في الشعر واهتمامًا بالجانب الفكري فيه. وكان من أهم عناصر التجديد عنده - كصاحبيه - الاهتمام في مجال موضوعات الشعر بالنفس الإنسانية البعيدة الغور، وحقائق الكون الكثيرة الأسرار، والطبيعة الرحبة العديدة المشاهد؛ وبصفة عامة: الاهتمام بكل ما يحرك الوجدان ويبعث على التفكير.. كما كان من أهم عناصر التجديد عنده: الاهتمام في مجال صياغة الشعر بالوحدة الفنية في القصيدة، ووجوب اعتبارها كلاً متآزراً لا أبياتًا مفرقة.. كما كان من أهم عناصر التجديد عنده: الخروج بموسيقا

الشعر إلى مجالات أكثر تحرراً وأبعد عن قيود الالتزام الموروثة، فهو قد جرب الشعر المقطعي الذي تتألف القصيدة فيه من فِقَر متساوية تستقل كل فقرة بقافية.. كما جرب الشعر المرسل الذي يتحرر تمامًا من الالتزام بالقافية..

***

وقد عمل شكري في ميدان التجديد على مستويين: أولهما المستوى النظري، حيث كتب داعيًا إلى آرائه التجديدية كتابات كثيرة، أهمها ما صدَّر به دواوينه. أما المستوى الثاني فهو المستوى التطبيقي، حيث أنتج إنتاجًا شعريًا غزيرًا، حاول فيه - بقدر الطاقة - أن يمثل مذهبه التجديدي في الشعر.. فقد أخرج شكري سبعة دواوين هي: «ضوء الفجر» و«لآلئ الأفكار» و«أناشيد الصبا» و«زهر الربيع» و«الخطرات» و«الأمثال» و«أزهار الخريف». والعجيب أنه أخرج هذه الدواوين السبعة في نحو عشر سنوات، من سنة ١٩٠٩م إلى ١٩١٩م.. وبعدها لم يخرج دواوين أخرى، وإنما نشر قصائد متفرقة يمكن أن تمثل ديوانًا ثامنًا.. وقد جمع هذه الدواوين كلها وأضاف إليها ما نشره شكري بعدها، الأستاذ نقولا يوسف، ونشرها في عمل كامل أسماه : «ديوان شكري»، وقد قدم له وحقق نصوصه وبذل في ذلك جهداً يستحق الثناء.. وكان ظهور هذا العمل- الذي اعتمدت عليه كثيراً- سنة ١٩٦٠م .

***

وقد ولد عبد الرحمن شكري في بورسعيد في اليوم الثاني عشر من شهر أكتوبر سنة ١٨٨٦م، وتعلم تعليمه قبل العالي بين بورسعيد والإسكندرية.

وبعد أن أتم المرحلة الثانوية، التحق بمدرسة الحقوق بالقاهرة، ولكنه فصل بعد سنتين، لاتصاله بمصطفى كامل ومشاركته في الحركة الوطنية.. والتحق بعد ذلك بالمعلمين العليا، ونال إجازتها سنة ١٩٠٩م. وكان منذ حداثته يُقبل على القراءة إقبالاً شديداً. وقد ساعده على ذلك وجود مكتبة لأبيه، بها بعض كُتب الأدب ودواوين الشعر، كذلك ساعده في نشأته الأدبية، قيام صلة بين أبيه وعبد اللّه النديم، الذي كان يتردد على بيت الوالد أيام نشأة الشاعر.. على أن مدرسة المعلمين العليا قد فتَّحت مواهبه ونظمت قراءاته، ونمَّت حصيلته الثقافية والأدبية. ففيها درس الآداب العربية والإنجليزية والفرنسية، كما درس التاريخ والفلسفة وعلم النفس وما إلى ذلك من العلوم الإنسانية. وكأن من أهم ما درسه شكري في المعلمين العليا، مجموعة مختارة من الشعر الإنجليزي تسمى «الكنز الذهبي». فقد فتحت تلك المجموعة أمامه الطريق إلى معرفة طائفة من أهم الشعراء الإنجليز مثل «شكسبير» و«شيلي» و«كيتس» و«ورذر وورث».. وفي مدرسة المعلمين عَرَفَ شكري المازني وتوطدت بينهما صداقة دامت سنوات. كما التقى في تلك الفترة بالعقاد صديق المازني، وقامت من الثلاثة جبهة أدبية قوية كانت ذات أثر بعيد في الحركة الشعرية التجديدية .

***

ولم تقف دراسة شكري الرسمية عند المعلمين العليا، فقد أُرسل - بعد تخرجه بتفوق - في بعثة إلى إنجلترا، لكي يدرس في جامعة «تشيفلد»، وقد درس بها نحو ثلاث سنوات حتى نال درجة «البكالوريوس» في الآداب سنة ١٩١٢م.. واشتغل شكري بعد عودته في وظائف التعليم، التي وصل فيها إلى درجة مفتش. ثم اعتزلها سنة ١٩٣٨م.. وبعد ترك الوظيفة عاد شكري إلى مسقط رأسه- بورسعيد- وعاش مع أسرة أخيه، واهبًا حياته للبحث والدرس والكتابة، مبتعدًا عن الزواج وطيبات الحياة.. ثم انتقل إلى الإسكندرية وقد أصابه الشلل، وعاش بها شبه منسي إلا من القليلين المخلصين من الأصدقاء.. وظل كذلك حتى انتقل إلى جوار ربه في شهر ديسمبر سنة ١٩٥٨م.. وكان شكري ذا طبيعة مرهفة، ونفسية حساسة، وشخصية تآزرت ظروف كثيرة على دفعها إلى الانطواء.

ولذا ظل معظم حياته ينشد السلام ويبحث عن الطمأنينة، ويحاول إيثار العافية التي أَمَّلَها أحيانًا في الموت.. وهذا يفسر لنا قصيدته التي حلم فيها بأنه مات واستطاب الموت، وتمنى ألا يُبعث حتى لا يرى صراعات الحياة وعيوب الناس من جديد.. وهي القصيدة التي يقول فيها:

رأيتُ في النوم أنّي رَهْنُ مظلمة

من المقابر مَيْتًا حوله رِمَمُ

ناءٍ عن الناس، لا صوتٌ فيزعجني

ولا طموحٌ ولا حُلْم ولا كَلِمُ

مطهَّر من عيوب العيش قاطبة

فليس يطرقني همٌّ ولا ألم

ولستُ أشقى لأمرٍ لستُ أعرفه

ولست أسعى لعيش شأنه العَدَمُ

فلا بكاءٌ ولا ضِحْكٌ ولا أمل

ولا ضمير ولا يأس ولا ندمُ

والموت أطهر من خبثِ الحياة وإنْ

راعت مَظَاهِرَهُ الأجْدَاثُ والظُّلَم

مازلتُ في اللحد مَيْتًا ليس يلحقني

نبحُ العدوِّ وبي عن نبحه صمم

على أن شكري رغم انطوائيته وكراهيته لما ينغمس فيه الناس من صراعات، لم يكن سلبيَّ النظرة دائمًا، بل كان ذا رؤية إيجابية ودعوة نضالية في كثير من الأحيان، ولعل ذلك قد كان قبل أن تتأزم نفسه من كثرة المعاناة وشدة وطأة هموم الحياة.

وحسبنا أن نصغي إلى قصيدته «الحياة والعبادة» التي يقول فيها:

أكْذَبُ الديْنِ ما يُنيمُ قُوَى المـ

ـرء كما يُخْرِس الرياحَ الرُّكُودُ

إنمـا الـدِّيـن أن تُـفَـكَّ عـن الـنـفـس مـــ

ـــن اليــأس والخـــمـــول قـــيـــود

إنمـا الـدِّيـن أن يَجِـــدَّ مُـــجِـــدٌّ

أَعـمَلَ السـعيَ، أو يُجِـيـدَ مُـجـيـد

إنمـا الـدِّيـن قــــوةٌ وجَـــمَـــالٌ

وحـــيـــاة وعُـــدةٌ وعَـــدِيـد

كـــيف يَدْرِي جــلالةَ الله غِـــرٌّ

حَـــرَّكَـــتْـــه ضَـــغَـــائنٌ وحُـــقُـــود؟

إنمـا هـذه الحـــيـــاة جـــهـــاد

والجــبــان الموهون فـــيـــهـــا جَـحُـــود

رحم اللَّه شكري.. وعوضه في دار النعيم والبقاء، ما فاته من راحة في دار الشقاء والفناء...

***

أهم المراجع::

١- ديوان شكري، جمع وتقديم الأستاذ نقولا يوسف.

٢- الأدب العربي المعاصر في مصر للدكتور شوقي ضيف.

٣- الشعر المصري بعد شوقي للدكتور محمد مندور.

الدكتور محمد حسين هيكل
رائد الدفاع عن السيرة النبوية

هذا الرجل أحد رجالات مصر الكبار، الذين شاركوا في ريادة الحياة الأدبية بصفة عامة، وأسهموا بجهود كبيرة في تطوير فنون النثر بصفة خاصة، وتميزوا بالكتابة المتفردة عن سيرة الرسول ﷺ بصفة أخص.. واللافت للنظر في حياة هذا الرجل، أنه لم يكن متفرغًا للأدب تفرغ غيره من الرواد الكبار، وإنما كان مع اشتغاله بالحياة الأدبية على مستوى الريادة، مشتغلاً كذلك بالحياة السياسية على مستوى القيادة، وأنه نجح في الحياتين إلى حد كبير.

وقد بلغ الرجل ما بلغه من مكانة مرموقة، نتيجة لظروفه الحياتية وروافده الثقافية وما وهبه اللَّه من مقومات شخصية.. وكل ذلك يتضح من سيرته التي يمكن إجمالها فيما يلي:

وُلد محمد حسين هيكل في كفر غنّام التابع لمركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية سنة ١٨٨٨م. وكان مولده لأسرة ريفية مصرية، تجمع بين الثراء والوجاهة الاجتماعية، فقد كان والده من مُلاك الأرض الميسورين،

كما كان عمدة لكفر غنام ومن رجالها الموقرين، وكان إلى جانب ذلك على قدر لا بأس به من الاستنارة والصلة ببعض كبار المثقفين، الذين كان أهمهم أحمد لطفي السيد، الذي يمت إليه بصلة قرابة.

***

وحين بلغ محمد حسين هيكل سنّ التعلم، بدأ تحصيله- في كتّاب البلدة- بالتدرب على القراءة والكتابة وبحفظ بعض آي القرآن الكريم.. ثم انتقل إلى القاهرة حيث بعض أعمامه، والتحق بمدرسة الجمالية الابتدائية، ولما أتم مرحلتها سنة ١٩٠١م، انتقل إلى المدرسة الخديوية الثانوية، وبعد أن نال شهادتها سنة ١٩٠٥م، التحق بمدرسة الحقوق، التي نال درجتها سنة ١٩٠٩م.

وكان محمد حسين هيكل ذا ميول أدبية تظهر في مراحل دراسته قبل العالية، ثم قويت أثناء المرحلة العالية، ولذا قرأ الكثير من أُمهات الكُتب العربية التراثية، وتابع في الوقت نفسه ما كانت تخطه أقلام كبار المفكرين في تلك السنوات، كالشيخ محمد عبده، وقاسم أمين، ولطفي السيد.. وقد كان لصلته بلطفي السيد بصفة خاصة أثر كبير في حياته وكثير من توجُّهاته. فقد تبناه فكريًا وأدبيًا، وساعده على نشر محاولاته الأولى في فن المقال على صفحات «الجريدة»، التي كان يرأس تحريرها.. كما أفاده كثيراً بتوجيهه إلى القراءة في مجالات الفكر بصفة عامة، والاهتمام بالفكر

الغربي بصفة خاصة. وكان لطفي السيد يؤمن بهذا الفكر، ويرى أن نهضة البلاد إنما تقوم بالسير في طريقه.. وهكذا شَغَلَ لطفي السيد محمد حسين هيكل- في المرحلة الأولى من حياته- بهذا الفكر، وبالقضايا التي كانت تشغله حينذاك، مثل قضية الحرية، وقضية الديمقراطية، وقضية إصلاح أوضاع المرأة، وقضية نهضة الوطن وبنائها على الأسس الغربية. كل ذلك مع الاهتمام بالشخصية المصرية، ووجوب إبرازها في الحياة الأدبية والفنية، إلى جانب إبرازها في الحياة السياسية والاجتماعية.

***

وبعد إتمام محمد حسين هيكل لدراسته العالية في مصر، رأى أن يتم دراسته العليا في أوروبا. فبعث به والده إلى فرنسا بمشورة أحمد لطفي السيد لكي يحقق أمله وأمل ولده. وفي باريس درس محمد حسين هيكل الاجتماع والقانون والاقتصاد، حتى حصل على الدكتوراه في الاقتصاد السياسي سنة ١٩١٢م.. وكان موضوع رسالته عن «دين مصر العام».. ومن أجل إنجاز هيكل لرسالته قرأ أهم ما كتب عن تاريخ مصر الحديثة وسياستها واقتصادها بالإنجليزية والفرنسية، كما قرأ أهم ما كتب عن مصر الحديثة بالعربية.. وأصبح منفتحًا بشكل واضح على الثقافة الغربية، التي أثّرت ما حصّله من قبل من الثقافة العربية.. واهتم بصفة خاصة بالأدب الفرنسي وفكر كبار المفكرين الفرنسيين، وكان له إعجاب شديد بـ«چان چاك روسو» و«أناتول فرانس» و«فيكتور هوجو» والناقد الكبير «تين».

وبعد عـودته إلى الوطن، اشتغـل أولاً بالمحاماة في المنصـورة. وكان يتردد على القاهرة للقاء بعض أبناء جيله مـن الأدباء، وللقاء الأستاذ أحمد لطفي السيد، والإفـادة من مخالطة المفكرين الذين كان يضـمهم في مجلس «الجـريـدة».. ومنذ سنة ١٩١٧م أسند إلـى الدكـتـور هيكل إلقـاء بعض المحاضرات في الجامعة الأهلية.

***

ولما تكون حـزب الأحـرار الدستـوريين كـان الـدكـتـور هيكل من مـؤسسيه، وحين أخرج الحـزب جـريدته «السيـاسـة» سنة ١٩٢٢م، تولى الدكتور هيـكل رياسة تحريرها. وكان ذلك بتـزكية من أستاذه لطـفي السيد، الذي كـان الرائد الفكري لهذا الحـزب وصـحيفتـه؛ لأن هذا الحزب كـان الصورة الجديدة لحزب الأمة، كما كانت صحـيفة «السياسة» الصورة المعدَّلة «للجريدة».. ومعروف أن لطفي السيد كـان العقل المفكر لحزب الأمة، كما كان رئيس تحرير صحيفته المسماة «بالجريدة».

وفي صحيفة «السياسـة» أخذ يكتب هيكل مقالات يغلب عليها في أول الأمر الطـابع السياسـي والإصلاحي، ثم أخذت مـقالاته تأخـذ الطابع الأدبي والنقدي في أغلب الأحيان.

وقد شـرع الدكتور محـمد حسين هيكل في التـأليف الأدبي وإذاعة مؤلفاته منذ وقت مبكر. ففي فرنسا - وأثناء دراسته في باريس- كتب رواية

«زينب» التي نشرها سنة ١٩١٤م بعد عودته إلى مصر. وهذه الرواية يُعدّها معظم مؤرخي الأدب الحديث أول رواية فنية في أدبنا.. ولاشك أن هذا العمل الأدبي قد جاء نتيجة لأمرين، الأول تأثر هيكل بالأدب الفرنسي، والثاني حنينه الشديد إلى مصر والريف المصري.

***

ثم أخرج هيكل كتابًا عن «روسو» في جزأين، نشر الأول منهما سنة ١٩٢١م، ونشر الثاني سنة ١٩٢٣م.. ثم جمع بعض مقالاته وأخرجها في كتاب بعنوان «في أوقات الفراغ» سنة ١٩٢٥م، وهو الكتاب الذي دعا فيه إلى الأدب القومي، الذي يمثل بيئتنا وعصرنا وحياتنا، وتتضح فيه ذاتيتنا وشخصيتنا.. ثم أخرج الدكتور هيكل كتابه «عشرة أيام في السودان» الذي كتبه تسجيلاً لرحلة له إلى هذا البلد الشقيق، لحضور احتفالات افتتاح خزان سنار سنة ١٩٢٦م.. وفي تلك السنة أخرج الدكتور هيكل «السياسة الأسبوعية» التي كانت معلمًا بارزًا من معالم الصحافة الأدبية .

وفي سنة ١٩٢٩م أخرج الدكتور هيكل كتابًا آخر يضم مجموعة من مقالاته، وسمى هذا الكتاب «تراجم مصرية وغربية».

وفي سنة ١٩٣١م أخرج كتابه «ولدي». وهو أقرب إلى أدب الرحلات، حيث اهتم فيه بوصف رحلاته إلى أوروبا، وهي الرحلات التي قام بها للتسرية عن نفسه وعن زوجته، بعد أن فقدا ولدهما سنة ١٩٢٥م .

وفي سنة ١٩٣٣م أخرج الدكتور هيكل كتابه «ثورة الأدب» الذي تناول فيه - ضمن موضوعات مختلفة- موضوع الدعوة إلى الأدب القومي، وألحّ عليه من جديد.

***

ثم بدأ منذ سنة ١٩٣٤م، يخرج كُتبه الإسلامية التي تتوج أعماله. فأخرج في ذاك العام كتابه «حياة محمد». ثم أخرج سنة ١٩٣٦م كتابه «في منزل الوحي»، الذي يحكي فيه مشاهداته في الأراضي المقدسة، حيث أراد أن يشاهد تلك الأماكن التي شهدت فجر الدعوة وشَرُفت بخطوات الرسول العظيم ﷺ ، ثم أخرج الدكتور هيكل كتابه عن «الصديق أبي بكر» سنة ١٩٤٢م، وبعد ذلك أخرج كتابه عن «الفاروق عمر بن الخطاب» سنة ١٩٤٤م .

ومع تلك المسيرة الأدبية الناجحة، مضت مسيرة الدكتور هيكل السياسية الناجحة كذلك.. ففي سنة ١٩٣٧م اختاره محمد محمود - رئيس حزب الأحرار حينذاك- وزيراً للدولة، ثم وزيراً للمعارف (التربية والتعليم)، وهي الوزارة التي تولاها عدة مرات، كلما جاءت وزارة للأحرار الدستوريين أو وزارة يشارك فيها الأحرار الدستوريون.

***

وفي سنة ١٩٤٥م، أُختير الدكتور هيكل رئيسًا لمجلس الشيوخ، وقد أصبح رئيسًا لحزب الأحرار.. وظل رئيسًا لمجلس الشيوخ حتى سنة ١٩٥٠م...

وبعد تركـه لهذا الموقع السياسي المرموق، كَتب كتـابه «مذكرات في السيـاسة المصرية» من جزأين، ظهر الأول منهما سنة ١٩٥١، وظهر الثاني سنة ١٩٥٣م.. ثم عاد إلى الكتابة في الفن القصصي، فـأخرج روايته «هكذا خُلقَتْ»، كما نشر عددًا غير قليل من القصص القصيرة في بعض المجلات المصرية.

وهكذا بدأ الدكـتور بالأدب وانتـهى به، وعُـرف بأدبه واعتُـرف به، واحدًا من كبار الرواد في الأدب الحديث.. ولذا اختاره مجمع اللغة العربية واحدًا من أعضائه البارزين منذ سنة ١٩٤٠م.

وأخيرًا، لقي الدكتور محمـد حسين هيكل ربه في شهر ديسمبر سنة ١٩٥٦م.

***

وقد خلّف الدكتور هيكل تراثًا أدبيًا ضخمًا كما رأينا. ولكن أعظم ما في تراثه على الإطلاق- في رأيي- هو كـتابه «حيـاة محمـد» الذي كتب فـيه سيرة الـرسول العظيم ﷺ - لأول مرة- بطريقة علمـية منهجيـة، تقوم على التحـقيق التاريخي من جـانب، وتعتمـد على العقل والمنطق من جـانب آخر، وتهتم بالدفـاع عن سيرة الرسول ﷺ، وتنحـية ما شابها من روايـات عربية إسلامية تـسيء إليها بغير قصـد، كما تهتم بدفع ما يوجَّه إلى صـاحب السيرة العطرة من اتهامات وافتراءات غربية، تتجنى عليه بجهل أو بسوء قصد.

***

وقد أخذ الدكتور هيكل نفسه بهذا بعد أن اتجه في حياته الفكرية وجهة جديدة، نتيجة لخيبة أمله في الغرب الذي ظهر عدوانه وبدت ماديته وتجلى جشعه، وبعد أن كثرت هجمات المبشرين وبعض المستشرقين على الإسلام ونبيه عليه السلام.. فهنا عدَّل هيكل من فكره، وصحح من نظرته، وأصبح يؤمن بأن السبيل إلى نهوض الأمة لن يكون باتباع الحضارة الغربية، وإنما يكون بإيقاظ روح الحضارة الإسلامية العربية.. ولذا ترك هيكل الاهتمام بأعلام الحضارة الغربيين، وأخذ في التأريخ لأهمّ الأعلام الإسلاميين، وبدأ ذلك بالكتابة عن «حياة محمد».

وكان لنزعة الدكتور هيكل الفكرية، ولدراسته القانونية، ولحرفته كمحامٍ، أكبر الأثر في ظهور كتابه على هذا الوجه العلمي المنهجي المقنع، الذي يتجه إلى العقل الغربي المنكر، كما يتجه إلى العقل العربي المسلم، والذي يضع الأمور في نصابها الصحيح، من حيث إحقاق الحق وإزهاق الباطل، بعيداً عن الخطابية والمبالغة، واستناداً إلى الحقيقة وحدها، وتحكيماً للعقل فحسب.

فهذا الكتاب ليس مجرد سرد لسيرة الرسول ﷺ اعتماداً على مصادرها الصحيحة، وإنما هو أيضاً تحرير لتلك السيرة وتنقية لها مما شابها مما لا يهضمه العقل. ثم هو دفاع عن أحداث ومواقف معينة، نسبت إلى تلك السيرة، وتسلل منها بعض المبطلين والحاقدين إلى اتهام الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بما هو منه براء.

***

ومن أبرز هذه الأحداث والمواقف، ما يدَّعِي المرجفون من أن الرسول ﷺ جامل قُريشًا ذات يومًا ليجنب أصحابه أذاهم، وفي سبيل هذه المجاملة أقحم ضمن آيات سورة النجم كلامًا يمتدح به الأصنام. ومن هذه الأحداث أيضًا، ما يزعمه المدلّسون من أن زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش قد كانت نتيجة إعجابه بها، بعد أن تزوجت من مولاه زيد بن حارثة، حتى لقد طلقها منه ليتزوجها هو.. ومن هذه المواقف أيضًا، ما يروجه المبطلون عن موضوع تعدد زوجات الرسول ﷺ، وزيادة عددهن عن العدد المباح لغيره من المسلمين. وأخيرًا من هذه الموضوعات التي يدافع عنها الدكتور هيكل ويبين فيها وجه الحق، موضوع انتشار الإسلام، وما ادعاه البعض- ممن يجهلون أو يحقدون- من أن هذا الانتشار قد كان بحد السيف.

فكل موضوع من هذه الموضوعات، قد وقف عنده الدكتور هيكل وقفة هادئة محللة متعقلة، وناقشه مناقشة موضوعية علمية منهجية، دون أن يخرج عن صحيح النصوص أو يتجاوز إلى تحكيم شيء غير المنطق الذي يلزم الجميع .

***

فإذا كان آخرون من الرواد قد كتبوا عن الرسول ﷺ، مثل طه حسين والعقاد، فقد تفرد هيكل من بينهم بجانب التصدي للدفاع عن السيرة المطهرة وصاحبها. وقد جاء ذلك منه بصفته رجل قانون ومحاماة، من شأنه أن يناصر الحق، وينتصف للعدل.

وبعد ذلك لا يفوتني أن أقول: إن الدكتـور محمد حسين هيكل كان من أصحـاب الاتجاه الفكري في الـكتابة. ذلك الاتجاه الـذي كان من رواده لطفي السيد وقاسم أمين والعقـاد. وهو الاتجاه الذي يقابل الاتجاه الأسلوبي الذي كان من رواده المنفلوطي وطه حسين والزيات .

وطريقـة هيكل - بين أصـحاب الاتجـاه الفكري- هي الطريقـة التي يمكن أن نسميـها «طريقة التحليل الكاشف»، تلك الطريقة التي تعـتمد على التـحليل والتعليل، قـصداً إلـى كشف الحـقيـقة وتجليـة الفكرة، وذلك دون إهمال لجمال التعبير، الذي يجتهد صـاحبه في أن يبدو طبيعيًا لا صنعة فيه؛ لأن الصنعـة من الدقة والخـفاء بحيث لا تعـلن عن نفسـها، وبحيث يـظهر جمال الـتعبير وكـأنه جمال خِلْقي، كـجمال الحسناء التي يأتي حـسنها من تناسق ملامحها وجاذبية روحها ورجاحة عقلها.. وهكذا يأتي جمال طريقة الدكتور هيكل من تناسق ألفاظها وجاذبية تعابيرها وقوة أفكارها.

***

ولعل في النموذج التالي من كتاب «حياة محمد» ما يؤكد ما سبق.. ففيـه يقول الدكتور هيكل في موضـوع زواج النبي ﷺ من السيدة زينب بنت جحش :

«ويكفي لهـدم كل القصة من أسـاسها، أن زينب بـنت جحش هذه، هي ابنة أميـمة بنت عبد المطلب عـمة رسول الله ﷺ ، وأنهـا ربِّيَتْ بعينه وعنايته، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى...».

«وبَنَى زيدٌ بزينب»، بعد أن ساق النبيُّ ﷺ إليها عنه مهرَها.. فلما سارت إليه، لم يَسْلَس له قيادها ولا لان إباؤها، بل جعلت تؤذي زيدًا وتفخر عليه بنسبها وبأنها لم يجرِ عليها رِقٌّ (مثله).. واشتكى زيد إلى النبي ﷺ غير مرة من سوء معاملتها إياه، واستأذنه غير مرة في تطليقها، فكان النبي ﷺ يجيبه (أَمْسِكْ عليك زوجَك واتَّقِ اللَّه) لكن زيدًا لم يطق معاشرة زينب وإباءها عليه فطلقها...».

«وكان الشارع قد أراد أن يبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها، ومن إعطاء الدَّعيِّ جميع حقوق الابن.. فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾.. ومعنى هذا أنه يجوز للمُدَّعَى أن يتزوج ممن كانت زوجًا لمن ادّعاه، ويجوز للمتبنِّي أن يتزوج ممن كانت زوجًا لمتبناه.. ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ هذا؟ ومَنْ مِن العرب يستطيعه وينقض به تقاليد الأجيال السابقة جميعًا؟

«إن محمدًا نفسه على قوة عزيمته وعميق إدراكه لحكمة اللَّه في أمره، قد وجد في نفسه الغضاضة في تنفيذ هذا الحكم، بأن يتزوج زينب بعد تطليق زيد إياها، ودار في خاطره ما يمكن أن يقول الناس في خرقه هذه العادة القديمة المتأصلة في نفوس العرب. وذلك ما يريده تعالى في قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ . لكن محمدًا كان القدوة في كل ما أمر به، فلا يخشى ما يقوله

الناس، وليتزوج من زينب، ليكون قدوة فيما أبطل الشارعُ الحكيم من الحقوق المقررة للتنبي والادعاء.. وفي ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾».

***

أهم المراجع:

١- الأدب العربي المعاصر في مصر للدكتور شوقي ضيف.

٢- مذكرات في السياسة المصرية للدكتور محمد حسين هيكل .

٣- محمد حسين هيكل في عيون معاصريه، إعداد الأستاذ نبيل فرج وتقديم الدكتور جابر عصفور .

٤- حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل .

الدكتور طه حسين
عميد التجديد في الأدب
ورائد التنوير في الحياة

مهما اختلفت الآراء حول طه حسين، فهو نموذج شامخ للشخصية المصرية في صلابتها وصمودها، وإصرارها على تخطي كل العقبات وتذليل أعتى الصعوبات.

فقد تصالحت على بيئته - منذ الطفولة - عناصر الفقر والجهل والظلام، ولكنه استطاع رغم ذلك كله أن ينبغ في التعليم، حتى يصل فيه إلى أعلى الدرجات، وينال أرفع الإجازات. كما استطاع بكفاحه المستبسل أن يخترق كل السدود، ويقهر أقسى الحواجز، حتى يتربع على عرش الأستاذية في أول جامعة مصرية، بل يتجاوز ذلك إلى أن يكون عميدًا ومستشارًا لوزارة التعليم ثم وزيرًا لها.. كذلك استطاع أن يشارك أعظم مشاركة في التنوير والإصلاح، لا في مصر وحدها بل في عالمنا العربي كله.. فسيرة الرجل صورة رائعة من سير الأبطال، وصفحات مُضيئة في تاريخ النضال.

***

وقد وُلد طه حسين - في أسرة متواضعة أقرب إلى الفقر- وكان ميلاده - حيث تعيش أسرته - في «عزبة الكيلو»، التي تبعد عن مغاغة - بمحافظة المنيا- بنحو كيلو؛ ولذلك سُميت بهذا الاسم. وعام مولده هو ١٨٨٩م.. وتلقى طه حسين دروس تعليمه الأولى في كُتّاب قريته، ثم انتقل إلى القاهرة ليدرس في الأزهر سنة ١٩٠٢م. وحين أُنشئت الجامعة الأهلية، أخذ يتردد عليها من سنة ١٩٠٨م، ثم تفرغ للدراسة بها، حين أسقط في إجازة العالمية الأزهرية سنة ١٩١٢م. وواصل الدراسة في الجامعة حتى نال درجة الدكتوراه سنة ١٩١٤م. وكان موضوع رسالته عن «أبي العلاء المعري» وكان أول من نال هذه الدرجة. ثم أوفد في بعثة علمية إلى فرنسا في السنة نفسها، فدرس نحو عام في «مونبلييه»، ثم عاد إلى مصر لعجز ميزانية الجامعة. ثم سافر إلى فرنسا في أواخر سنة ١٩١٥م، واتجه إلى باريس- بعد إصلاح شئون الجامعة- وظل بها حتى سنة ١٩١٩م، وكان قد نال درجة الدكتوراه سنة ١٩١٨م على بحثه «فلسفة ابن خلدون»، ثم دبلوم الدراسات العليا في التاريخ القديم.. وعاد إلى مصر للعمل أولاً مُدرسًا للتاريخ القديم بالجامعة التي كانت مازالت أهلية حتى هذا التاريخ.. وحين ضمت الجامعة إلى الحكومة وأعيد تنظيمها وتدعيمها سنة ١٩٢٥م، أُختير طه حسين أستاذًا للأدب العربي بها، ثم أُختير عميدًا للآداب سنة ١٩٣٠م، ثم أبعد عن الجامعة في عهد صدقي سنة ١٩٣٢م نتيجة لبعض آرائه التحررية ومواقفه السياسية،

ثم أعيد إليها سنة ١٩٣٦م، وانتخب عميدًا سنة ١٩٣٨م، ثم عين مستشارًا فنيًا لوزارة المعارف (أي التربية والتعليم)، ثم مديرًا لجامعة الإسكندرية سنة ١٩٤٢م، ثم أحيل إلى التقاعد سنة ١٩٤٤م. وبعد ذلك عاد وزيرًا للمعارف سنة ١٩٥٠م.. وقد نال جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٦١م، وكان قد خَلَفَ الأستاذ لطفي السيد في رياسة المجمع اللغوي سنة ١٩٦٠م، بعد أن كان عضوًا بالمجمع منذ سنة ١٩٤٠م، كما منح عددًا من الدكتوراهات الفخرية من بعض الجامعات الغربية.

***

وكان طه حسين من أوائل الدارسين للأدب على أسس منهجية، بل كان بحق مؤصل منهج الدراسة الأدبية. كذلك كان من أوائل رواد الحركة النقدية والمعرّفين بأهم المدارس النقدية الغربية. وكان أيضًا من الباحثين في التاريخ وأصحاب الآراء الجديدة والتحليلات الكاشفة، وخاصة في الحضارة الإسلامية والعربية. هذا إلى رعايته للترجمة وتشجيعه لها، وإلى رعايته أيضًا للتحقيق والاهتمام به والمشاركة فيه، ثم للمسرح والعمل على إشاعة أدبه مترجمًا ومؤلفًا .

ويُذكر لطه حسين بكل الإجلال، اهتمامه بأمر التعليم، والمناداة بأنه حق لكل المواطنين كالماء والهواء. وإذا كانت تلك الدعوة قد أدى تطبيقها دون استعداد كاف إلى عديد من السلبيات التي يعاني منها التعليم اليوم؛ فالذنب ذنب التطبيق لا ذنب الدعوة نفسها.

كذلك يُذكر لطه حسين بكل الإكبار، اهتمامه بالحياة الجامعية، وعمله على أن تستقر تقاليدها في حرية الفكر، وتجرّد الباحث، وتأكيد الاستقلال الجامعي، عن كل ما من شأنه أن يعوق تلك الحرية، أو يشوب هذا التجرد، أو يمس كرامة الجامعة أو الجامعيين.. وأما في مجال الإبداع الأدبي، فيذكر لطه حسين - بكل الإعجاب - أنه من أوائل الرواد العظام، الذين وضعوا أصلب الأسس وأوسعها للأدب العربي الحديث. فهو قد راد الطريق ومهده في الفنون الأدبية المستحدثة، مثل الرواية والقصة والترجمة الذاتية، وله في هذا المجال إبداعات كانت من أهم العوامل التي أصَّلَتْ هذه الفنون في أدبنا، ولفتت الأنظار إلى نتاجنا، وعَلّمت الأجيال التالية من أدبائنا. ولا يمكن أن يُنْسَى «دعاء الكروان» أو «المعذبون في الأرض» أو «الأيام» التي ترجمت إلى أهم اللغات الحية ونالت تقديراً كبيراً في كثير من الأوساط الأدبية والأكاديمية في العالم.. وإلى جانب ريادة طه حسين في هذا المجال المتصل بفنون الأدب المستحدثة، قد عمل على تطوير الفنون الموروثة، وخاصة مجال النثر الفني. فقد اهتم طه حسين اهتمامًا كبيراً بهذا النثر، وجعل منه أهم الوسائل أو الأشكال التي يعبر بها عن نفسه تعبيراً رفيعًا، حين يقتضي الأمر حرية الحركة وسرعة الاستجابة واختصار الطريق.

وهكذا كان طه حسين ممن جعلوا من قالب المقال شكلاً أدبيًا يجمع بين المضمون الجاد والصياغة الرفيعة، وأنتج من المقالات ما ملأ - بعد نشره

في الصـحف والمجلات- عـدداً غير قـليل من الكتب والمجلدات. ولا يمكن أن يُنْسَى «حـديث الأربعـاء» الذي ضم مـقـالات تتـناول أدبنا العـربي من العصر الجاهلـي إلى العصر الحديث. كما لا يمكن أن ينسى كـتاب «فصول في الأدب والنقد» أو كتاب «حافظ وشوقي» أو كتاب «ألوان».

***

على أن من أعظم ما يُذكر لطه حسين في مجال الإبداع الأدبي، هذه الطريقـة المتفـردة التي تميز بهـا أسلوبه، والتي تجمع بين الـشاعرية المـصورة والغنائية العذبة. وهي طريقة تدل على أصالة وموهبـة وثقافة عربية واسعة، وعلى معرفـة بالأساليب الأدبية الغربيـة الرفيعة. فطريقـة طه حسين في نثره تدل عليه وإن لم يذكر اسمه مقرونًا بما يكتب، وهي تعكـس طبيعته وثقافته وخبرته اللغوية في المقام الأول..

وقد كانت اللغة العربية حب طه حسين الكبـير وعشقه الذي يستأثر بأهم جوانب وجدانه.. ومن هنا كان إمامًا من أئمة اللغة وحاميًا من حماتها وفارسًـا من فرسانهـا. وكان لنشاطه في المجـمع اللغوي أثر بالغ في مـيدان خدماتها تيسيراً وتطويراً، وتقـعيداً وتأصيلاً، وإغناء وإثراء؛ وصولاً إلى كل ما من شأنه أن ينـهض باللغة العربية ويطوعـها لمتطلبات العصـر مع الحفاظ الكامل على أصالتهـا، وسلامة قواعدها، ومُـضيّها في قداستـها، التي تحفظ على الأمة العربيـة وحدتها وتصون تراثها، وتربطها بكتـابها الخالد العظيم، «القرآن الكريم».

ولا يُنسَى لطه حسين أبدًا، أنه كـان من أكبر دعاة الديمقـراطية، ومن أعظم حماة الحرية، ومن أشد فرسان العدالة الاجتماعية. وقـد بذل الكثير من الجهـد، ولقي الكثيـر من المعاناة - بل من الاضـطهاد - في سبـيل تلك القـيم وإشاعـتهـا والحفـاظ عليهـا، ووصل الأمـر به إلى تحمل الفـصل من الجامـعة، والإبعاد عن المناصب، والتـهديد في الرزق. ولكن صلابتـه كانت دائمًـا تقف حجـر عثـرة في طريق من أرادوا به الشـر، وقصـدوا إلى تحطيم قيمه أو إذلال كبريائه.

وهكذا ظل طه حـسين يجاهد طيلة حـياته، من أجل لغتـه وثقافـته، ومن أجل بلده وأمتـه، ومن أجل أدبه وإثرائه وتوسيع رقعتـه؛ حتى لقي ربه في أكتوبر سنة ١٩٧٣م.

رحم الله طه حـسين، وجزاه خـيرًا عـما قـدم لأدبنا من تجديد، ومـا أضاء به حياتنا من تنوير يستحق به التمجيد.

أهم المراجع:

١- طه حسين الكاتب والشاعر للأستاذ محمد السيد كيلاني.
٢- مع طه حسين للأستاذ سامي الكيلاني.
٣- مجلة الهلال - عدد أول فبراير سنة ١٩٦٦م .
٤- الأيام للدكتور طه حسين .

العقاد
عاشق الحرية وعملاق الأدب

عملاق الأدب العربي الأستاذ عباس محمود العقاد تشمخ شخصيته دائمًا شموخ الهرم، ويتدفق أدبه تدفق النيل، وسوف يبقى اسمه وفنه من أهم معالم مصرنا الحبيبة، ووطننا العربي الكريم، وفكرنا الإسلامي العظيم.

وقد ولد عباس محمود العقاد بمدينة أسوان سنة ١٨٨٩م، وتلقى بها دروسه الابتدائية، وأتمَّ مرحلة هذه الدراسة ونال شهادتها سنة ١٩٠٣م.. ولم يقتصر على هذه الدراسة الرسمية المتواضعة بطبيعة الحال، بل أقبل بكل حماسة منذ صباه على التثقيف الذاتي؛ فكان أولاً يتردد على مجالس الشيخ الجداوي أحد تلاميذ الأفغاني، ثم كان بعد ذلك يقرأ بنهم في الأدب العربي القديم والحديث، وفي الأدب الغربي وخاصة الأدب الإنجليزي، وكان إلى ذلك كله يهتم بالإنسانيات وخاصة الفلسفة والتاريخ، بل تجاوز ذلك إلى دراسة بعض العلوم كالزراعة والحشرات وغير ذلك، مما جعل منه موسوعة أدبية وعلمية حية .

وقد عمل العقاد في أول شبابه موظفًا حكوميًا، فكان بالقسم المالي بمديرية الشرقية، ثم كان في ديوان الأوقاف بالقاهرة، كما عمل فترة بمصلحة الإيرادات بقنا .

***

كذلك اشتغل بالتدريس بعض الوقت، حيث عمل في بعض المدارس الأهلية بالقاهرة.. لكنه كان منذ شبابه المبكر يؤثر الصحافة والكتابة الأدبية.. وقد اتصل في أول عهده بالصحفي والعالم الأديب محمد فريد وجدي، وكتب في صحيفة الدستور التي كان يصدرها. ثم كتب في صحف أخرى، وظل يتألق نجمه حتى صار الكاتب الأول لصحف الوفد، وخاصة صحيفة البلاغ، بعد أن انقطع للكتابة، وأصبح موضع حب سعد زغلول وتقديره، ثم اختلف مع زعماء الوفد- في منتصف الثلاثينيات- وانضم إلى معارضة هذا الحزب الشعبي، وصار من ألمع كُتّاب معارضيه.

وظل ينتج الأدب شعراً ونثراً، حتى توفي في مارس سنة ١٩٦٤م، دون أن يتزوج، لا كراهية للمرأة، بل إيثاراً للتفرغ الكامل لرسالة الفكر والفن والأدب.

وقد كان العقاد يتفرد بشخصية متميزة شكلاً ونفسًا وعقلاً وروحًا. أما الشكل، فقد كان قامة فارعة لافتة للنظر، وكان يتمتع بعينين نفاذتين تبرقان بالذكاء ودقة الإدراك.. وكانت له ملامح مصرية فيها صرامة وجد، كما كان

صوته يمتاز بالقوة وتشيع فيه نبرات الاعتزاز بالذات.. وأما العقل، فقد كان جباراً، يميل إلى التحليل والتعليل والمنطق الصارم.. وأما النفس، فقد كانت تنزع بحدة إلى الإحساس بالتفوق، والشعور بالكرامة، والتقديس للحرية، والتقدير للعظمة الفردية.. وأما الروح فقد كان مفعمًا بالحنان والمودة والرقة، وخاصة مع الأصدقاء والخلصاء والأطفال.. وقد كان مفتاح شخصية العقاد ذات شعب ثلاث: الإحساس الضخم بالذات، والإيمان العميق بالحرية، والكَلَف الشديد بالصراحة والمواجهة.

***

وقد هيأت تلك الخصائص النفسية العقاد لكي يكون مناضلاً من الطراز الأول، فهو قد ناضل حين علَّم نفسه، حتى وصل بجهده الذاتي إلى مستوى الرواد الذين نالوا أعلى الإجازات من أرقى الجامعات، مثل لطفي السيد وطه حسين وهيكل .

***

وهو قد ناضل في ميدان السياسة، حتى أصبح يهدد بقلمه أعتى السياسيين ويزلزل أقوى الوزارات، بل استطاع أن يهدد الملك فؤاد تحت قبة البرلمان، حين اعتدى هذا الملك على الدستور. ولم يَفُتّ السجنُ في عضد العقاد، ولم يخرج من السجن ليسترضي الملك كما طُلب منه، بل خرج ليزور ضريح سعد زغلول، وليعلن تمسكه بموقفه من أجل الدستور والحرية.

كذلك ناضل العقاد ضد كلٍّ من رأى فيه معاداة للحرية ونزوعًا إلى السيطرة. فوقف ضد النازية والشيوعية، كما وقف ضد حزب الوفد، حين رأى أنه يريد أن يتسلط باسم العامة، ووقف أيضًا ضد جماعة الإخوان المسلمين، حين رأى أنها تحاول أن تسيطر باسم الدين.. ومن أجل ذلك لم يكن العقاد متعاطفًا مع الاتجاه العام لثورة يوليه، لما رأى أنها تفيد الحريات وتميل إلى سيطرة الفرد.

***

أما نضال العقاد في ميادين الفكر والأدب واللغة، فنضال رائع بحق، فقد تعددت ميادين إنتاجه وتنوعت كتاباته تنوعًا لم يتوفر لأحد غيره بين رجالات عصره، بل ربما بين رجالات العربية قديمًا وحديثًا .

فهو قد كتب الشعر، وكان فيه أحد رواد اتجاه متميز، وصاحب دواوين شتى.. وهو قد كتب النقد وكان فيه أحد أعلام مدرسة لعبت دورًا رياديًا في تأصيل النقد وتطوير الأدب الحديث.. وهو قد كتب الدراسة الأدبية، وله فيها بحوث وكُتب متصدرة آخذة مكان الريادة المؤصلة.. وهو قد كتب الرواية، وله فيها عمل فريد كان ومازال موضع حفاوة القارئين والدارسين.. وهو قد كتب التاريخ، وله فيه سلسلة العبقريات المتفردة بالمنهج والطابع .

وهو قد كتب الفلسفة، وله فيها أيضًا كتب تضعه بين الفلاسفة والمفكرين.. وهو قد كتب في اللغة، وله فيها أعمال تشهد بأنه من كبار

الباحثين اللغويين.. وهو قد كتب في السياسة، وله فيها مقالات تُعد بالمئات، وتؤكد أنه من ألمع كتاب السياسة في العصر الحديث.

***

وقد كان العقاد صاحب نظرية في الشعر، تقوم على مراعاة الصدق، وتحقيق الوحدة العضوية، والتعبير عن الذات، والاتصال بالطبيعة والحياة والإنسان، والاهتمام بالعقل والفكر إلى جانب القلب والعاطفة.

كذلك كان العقاد صاحب نظرية في الدراسة الأدبية، تقوم على دراسة شخصية الأديب من خلال مقوماتها النفسية، وعرض نتاجها على تلك المقومات للتعرف على مدى الصدق في الإبداع؛ لأن الصدق من أهم الأسس التي يقوم عليها أي إبداع أدبي.

ثم كان العقاد صاحب نظرية - أو طريقة - في كتابة التاريخ، تعتمد على أنه من صنع العباقرة ومن توجيه الموهوبين. ومن هنا يجب توقير هؤلاء العباقرة، ورسم صورة لهم تقوم على جمع الحقائق التي تتكامل منها صورة العظيم الموقّر بالضرورة؛ وذلك رعاية للتاريخ من جانب، وتجسيداً للقدوة من جانب آخر.. وبهذه النظرة اختار العقاد من التاريخ شخصياته العبقرية، وكتب عنها سلسلته المعروفة.

وأخيراً كان العقاد صاحب نظرية في الأسلوب، تعتمد على وجوب أن يكون محكمًا، معبراً عن الأديب، متّسمًا بسمات شخصيته، متجنبًا للفضول والتزيد والمحاكاة، مفعمًا بالفكر والثقافة وضوء العقل.

وللعقاد نحو مائة مؤلف بين كتاب وديوان شعر.. وكان - رغم تنوع مجالات إبداعه - يعتز في المقام الأول بمجال الشعر، كما كان يفخر- قبل أي لقب- بلقب شاعر. وحين سئل- يوم أرادت جامعة القاهرة ترشيحه لجائزة الدولة التقديرية- عن الجانب الذي يفضل إبرازه من بين جوانب إبداعه- لكي يسجَّل في المذكرة التي سوف ترفعها الجامعة إلى المجلس الأعلى للفنون والآداب- قال: جانب الشعر؛ فأهم ما أعتز به أني شاعر.

ومع ذلك، مازال البعض ينتقص من شاعرية العقاد، ويصف شعره بالجفاف.

والسبب - فيما أعتقد - في هذا الاتهام الظالم، أن الناس في بلادنا قد تعودوا غالبًا على الشعر البياني والعاطفي، الذي يتسم بإشراق الديباجة وحرارة العاطفة، ولم يألفوا الشعر الذي يتسم بإشراق الفكر والتوجه إلى العقل إلى جانب العاطفة.. وهذا اللون من الشعر غير المألوف كثيراً ما يحتاج إلى مزيد من التأمل والصبر من المتلقي، حتى يصل إلى أغواره ويدرك غايته، ومن هنا يحبه ويستمتع به.

ومن نماذج هذا الشعر قول العقاد عن المعرفة الإنسانية ومحدوديتها، ووجوب كبحها، وعدم الشطط بها إلى آفاق ليس في مقدور الإنسان أن يدركها، فإذا ما حاول كان كمن أصر أن يصعد إلى قمة جبل ليس عليها إلا الثلج الذي يجمّد من يقترب منه، وإلا الهلاك الذي يجب على العاقل أن يبتعد عنه.. يقول العقاد:

إذا ما ارتقيتَ رفيع الذُّرَى
فإياك والقمةُ البارده
هنالك لا الشمس دوارة
ولا الأرض ناقصة زائده
ولا الحادثاتُ وأطوارُها
مجدَّدة الخلق أو بائده
ويا بؤس فانٍ يَرَى ما بدا
من الكون بالنظرة الخالده
فذلك ربٌّ بلا قدرة
وحَيٌّ له جثة هامده
إلى الغَوْرِ أما ثلوج الذُّرَى
فلا خير فيها ولا فائده

رحم اللَّه العقاد، وأجزل ثوابه، جزاه ما قدم لمصر والعروبة والإسلام، من فكر أصيل، وفن جميل، وأدب مُعَلِّم لكل جيل.

أهم المراجع:

١- العقاد - دراسة وتحية، بأقلام مجموعة من أصدقائه وتلاميذه .

٢- الأدب العربي المعاصر في مصر للدكتور شوقي ضيف.

٣- الشعر المصري بعد شوقي للدكتور محمد مندور.

الدكتور غنيمي هلال
أستاذ النقد والأدب المقارن

هذه الصفحات عن عَلَم متميز من أعلام الدراسات الأدبية، وأستاذ من أعظم الأساتذة الذين تعتز بهم الأوساط الأكاديمية والمحافل الثقافية.. وقد تخصص هذا العلم المتميز في مجالين هامين، هما مجال «النقد الأدبي»، ومجال «الأدب المقارن». وكان في كلا المجالين يحتل مكان الريادة.

وكان من حق هذا الناقد الرائد- الذي رحل عنا منذ فترة طويلة- أن أكتب عنه منذ سنوات، وذلك لمكانته العظيمة أولاً، ثم لصداقته الحميمة ثانيًا.. غير أن شواغل عديدة حالت دون ذلك، حتى مرت السنوات والسنوات، وأنا أستشعر التقصير في التعبير عن الوفاء والتقدير لهذا الزميل والصديق الكبير.. وكنت ألتمس أن تحين الفرصة لكي أقوم بواجب الوفاء المؤجَّل، حتى جاءت هذه الفرصة ممثلة في الكتاب التذكاري الذي أخرجه عن الراحل الكريم بعض الأوفياء من تلاميذه النابهين وأصدقائه المخلصين، وهو كتاب يضم دراسات جادة ومتخصصة تتناول بالتعريف والتحليل

شخصية الدكتور هلال وآثاره، بصفته «ناقدًا ورائدًا في دراسة الأدب المقارن».. فكان هذا الكتاب - الذي ظهر في الذكرى الثمانين لميلاد العالم الراحل- حافزًا لي- بل معينًا- لكي أكتب هذا الحديث، لأقدم من خلاله التحية لمن أصدروا هذا العمل العلمي الجميل، ثم لأؤدي واجبًا طال تأجيله نحو صديق عزيز وعالم جليل.

***

وقد جرت العادة حين يُكتب عن عَلَم من الأعلام، أن يُقدَّم بين يدي الحديث عنه تعريف بسيرته، لكي يحيط القارئ الذي لا يعرفه بجوانب شخصيته، وليعرف أهم المؤثرات في إنتاجه وثقافته.. ولذا أقول عن هذه السيرة: إن محمد غنيمي هلال ولد في قرية «سلامنت» التابعة لمركز بلبيس بمحافظة الشرقية سنة ١٩١٦م.. وبعد أن حفظ القرآن الكريم، التحق بمعهد الزقازيق الديني، ودرس به المرحلتين الابتدائية والثانوية.. ثم التحق بدار العلوم وأتم بها دراسته العالية سنة ١٩٤١م.. وبعد ذلك اشتغل بتدريس اللغة العربية في بعض مدارس وزارة المعارف (التعليم الآن).. ثم اختير ليوفد مبعوثًا إلى فرنسا لدراسة الأدب المقارن، وكان من أسباب اختياره أنه كان قد تلقى دروسًا في اللغة الفرنسية في بعض المراكز التي كانت تعلمها أثناء دراسته الثانوية بالزقازيق، ثم لأنه كان أول فرقته حين نال إجازة دار العلوم.. وفي باريس نال أولاً أربع دبلومات ليتحقق له الحصول على ليسانس الآداب، ثم نال ثانيًا درجة دكتوراه الدولة في الأدب المقارن سنة

١٩٥٢م من السربون.. ولكي يحقق هذا الإنجاز تعلم في فرنسا اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية، التي عاش من أجلها فترة في إنجلترا، كما أتقن اللغة الفرنسية.. وكل ذلك إلى جانب دراسته المنهجية للأدب المقارن على يد أبرز أساتذته من الفرنسيين، واقتضت هذه الدراسة التعرف على التيارات النقدية والمدارس الأدبية الغربية.. وبعد حصوله على الدكتوراه عاد الدكتور هلال إلى مصر، وعُيِّن مدرسًا بكلية دار العلوم، ثم رقي إلى درجة أستاذ مساعد.. وواصل تدريس النقد والأدب المقارن في دار العلوم بصفة أساسية، وفي كلية الآداب بجامعة عين شمس، وفي معهد الدراسات العربية، وفي الجامعة الأمريكية على وجه الانتداب.. وحين خلا كرسي البلاغة والنقد والأدب المقارن في كلية دار العلوم، كان الدكتور هلال يأمل أن يشغله، ولكن أمله لم يتحقق، حيث شغل الكرسي أستاذ آخر.. فضاق بهذا وانتهز فرصة احتياج كلية الجامعة العربية بالجامعة الأزهرية إلى أستاذ في الأدب المقارن، فتقدم إليها وتم حصوله على الأستاذية بها سنة ١٩٦٤م.. وفي سنة ١٩٦٥م أعير إلى كلية الآداب بجامعة الخرطوم، حيث قام بتدريس النقد والأدب المقارن لطلبتها قرابة ثلاث سنوات.. ثم مرض هناك مرضًا ثقيلاً، فعاد إلى مصر في مارس سنة ١٩٦٨م، وظل يعاني من مرضه الذي لم ينجح معه العلاج، حتى توفي في السابع والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٦٨م.

***

وتتمثل ريادة غنيمي هلال في مجال النقد الأدبي فيما اختطه من منهج متكامل في هذا المجال، حيث لم يقف عند التعريف بالنقد العربي كما فعل الدكتور مندور في كتابه الممتاز «النقد المنهجي عند العرب»، كما لم يقف عند الحديث عن النقد الغربي كما قدمه أساتذة متمكنون كالدكتور لويس عوض والدكتور رشاد رشدي.. كذلك لم يقف عند أصول النقد عند اليونان، كما فعل بعض الأساتذة المتخصصين في الدراسات «الكلاسيكية» كالدكتور صقر خفاجة.. وإنما مزج الدكتور هلال بين النقد عند اليونان والنقد عند العرب والنقد عند الغربيين المحدثين، وعرض ذلك كله في سلسلة متتابعة الحلقات، تبدأ بالنشاط النقدي عند اليونانيين من الفلاسفة المعلمين، ثم تُثنِّي بالجهود النقدية والأصول الفنية للأدب عند الغربيين المحدثين.. وبذلك - ولتمكنه من التراث العربي أولاً، ولمعرفته الجيدة بالنتاج النقدي الغربي ثانيًا- قدم الدكتور هلال هذا الإنجاز الرائد في النقد الأدبي ممثلاً في كتابه «النقد الأدبي الحديث» ، الذي عرّف فيه- بعد التتبع التاريخي لمراحل النقد- بالأجناس الأدبية من شعر وقصة ومسرحية، كما وضّح الأصول التي يقوم عليها كل جنس. كذلك حدّد الدكتور هلال المفهوم الدقيق للنقد، فبيّن أنه إضاءة للأعمال الأدبية والكشف عن معطياتها الفنية، ثم الحكم عليها حكمًا يقوم على التحليل والتعليل، ولا يكتفي بالانطباع الذاتي والمزاج الشخصي.

***

كذلك حدد الدكتور هلال طبيعة النقد وموضعه من العلمية والفنية، مؤكدًا أنه علم، ولكن ليس بالمفهوم المعروف لدى أصحاب العلوم العملية، ولكن بالمفهوم الذي يضم مجموعة العلوم النظرية، كاللغة والفلسفة والاجتماع، وما إلى ذلك من المعارف التي هي مجموع أصول ومسائل كلية، تدور حول محور معين من محاور المعرفة الإنسانية. فالنقد الأدبي - كما أوضح الدكتور هلال- علم بهذا المفهوم، ولكن ليس لمبادئه قوة القوانين ولا حتمية القواعد التجريبية، لكن لها في الوقت نفسه سيطرة الوعي التاريخي للفن، فيمكن تجديدها، بل تجاوزها على أيدي المقتدرين المتبعين لإنتاج المجددين المبدعين الجادين.. ولكن هذه المبادئ النقدية - رغم ذلك - لا يصح تجاهلها أو الجهل بها بأي حال من الأحوال بحجة أنها قد تكون قديمة؛ لأن التجديد يقوم أساسًا على الإحاطة بالقديم وقتله بحثًا.

كذلك تتمثل ريادة الدكتور هلال في مجال الأدب المقارن، في كونه صاحب أول كتاب علمي أكاديمي حدّد المفهوم الدقيق لهذا الفرع من فروع الدراسات الأدبية، وبيّن أنه ليس المقارنة بين نص أدبي ونص آخر في لغة واحدة لوجود أوجه للشبه بين النصين، ولا هو المقارنة بين عمل أدبي في لغة وعمل أدبي في لغة أخرى لمجرد وجود ملامح مشتركة بين العملين؛ وإنما الأدب المقارن هو العلم الذي يدرس العلاقات بين الأعمال الأدبية في لغتين أو أكثر، وما ينشأ عن هذه العلاقات من تأثير وتأثر بسبب ظروف تاريخية حقيقية أدت إلى ذلك.. فلابد إذن من أن

تكون الأعمـال المدروسة من لغتين علـى الأقل، ثم لابد أن يتحقق التـأثير من بعض الأعمـال في غيره.. وطبـيعي أن هذا المفهـوم للأدب المقارن هو الذي أخذت به المدرسة الفرنسية التي تتلمـذ عليها الدكتور هلال واعتنق مبادئهـا. وكان ذلك قبل اتضاح مـعالم المدرسة الأمريكيـة التي لا تشترط التأثيـر والتأثر ولا تبحث عن العلاقـات التاريخية، وإنما نكتـفي بالتحليل والكشف عن الظواهر والسمات المشتركة بين الأعمال الأدبية.. وعلى أية حال فكتاب الدكتور هلال في «الأدب المقـارن»- رغم أنه مسبوق ببعض الكتابـات في هذا العلم- أول كتـاب وافٍ ودقيق وأكاديمي في بـابه حتى اليوم، وخاصة فيما تقول به المدرسة الفرنسية.

***

كذلك تتأكد ريادة الدكتور هلال في مجال الأدب المقارن، بما أضافه في مجـال التطبيق العملي لهذا العلم.. فـقد قام بدراسات تـطبيقية مـقارنة قيـمة، بادئًا برسالتيـه اللتين نال بهما الدكـتوراه، ثم ثنى بعدد من البـحوث المتمـيزة في هذا الحـقل، ثم ختم باقـتراح بعض الموضوعـات التي يمكن أن يشتـغل بها التالون من الدارسين، ليـحققـوا بها إضافـات إلى حقل الأدب المقارن، مـازالت الدراسات الأدبية تحتـاجها، ومـازال الأدب القومي يتطلع إلى إبرازها ليؤكد المزيد من أصالته وحيويته .

***

أما رسالتاه للدكتوراه، فكانت الرسالة الأساسية منهما تحمل عنوان: «تأثير النثر العربي في النثر الفارسي خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين».. وكانت الرسالة التكميلية تحمل عنوان «هيباتيا في الأدبين الفرنسي والإنجليزي من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين».. وفي الرسالة الأولى ركز الباحث على تأثير المقامات وقصص الحيوان والرسائل العربية بأنواعها المختلفة على النثر الفارسي، الذي ظهرت فيه آثار بينات للتأثر بالإبداع العربي في هذه المجالات.. وفي الرسالة الثانية أوضح الباحث أثر قصة الفيلسوفة المصرية - ومديرة جامعة الإسكندرية القديمة، والتي عاشت في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلاديين - في الأدبين الإنجليزي والفرنسي، وما كان في هذين الأدبين من أعمال تقوم على بيان الصراع بين الفلسفة والفكر الحر من جانب، وبين الكنيسة والفكر المتعصب من جانب آخر.. فقد مثلت «هيباتيا» جانب الفلسفة والفكر الحر، كما مثل عدوها أسقف الإسكندرية الفكر الكنسي والتعصب الديني. وانتهى العداء بينهما بأن شجع الأسقف بعض المتعصبين من أعوانه على اختطاف «هيباتيا» وقتلها.

وأما بحوث الدكتور هلال المتميزة في مجال الدراسات المقارنة التطبيقية فهي عديدة ومن أهمها: كتاب «الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية» وهي دراسة مقارنة حول موضوع مجنون ليلى في الأدبين العربي والفارسي.

وأما إفساحه للمجال أمام من يريدون العمل في الميدان التطبيقي للأدب المقارن، فقد تمثل في هذه الموضوعات التي اقترحها على الدارسين، وقام بالتخطيط لبعضها.. ومما هو جدير بالذكر أن بعض هذه الموضوعات قد درسها بعض من ساروا على درب الدكتور هلال، وخاصة من تلاميذه الأذكياء الأوفياء.

***

كذلك تتمثل ريادة الدكتور هلال في مجال التعريف بالمدارس الأدبية في كتابه القيم عن «الرومانتيكية». فعلى الرغم من الكتابات التي سبقت إلى التعريف بتلك المدارس الغربية- كما فعل الدكتور مندور مشكوراً وكما فعل غيره من الباحثين مشكورين- فإن كتاب الدكتور هلال أوفى وأدق ما كُتب بالعربية عن هذه المدرسة من المدارس الغربية. وليت اللّٰه قد مدَّ في أجله حتى يتم الكتابة عن بقية المدارس الأدبية الأخرى كما كتب عن «الرومانتيكية».

وقد اشتهر الدكتور هلال بوفرة المحصول من العلم الذي يؤلف فيه. وكان لهذا الجانب من جوانب شخصيته فائدة كبيرة لمن يتابعون مؤلفاته ويفيدون من بحوثه. فقد كان يتابع الطبعات المختلفة للمراجع التي يصدر عنها، ثم يصحح من خلال هذه المتابعة ما يحتاج إلى تصحيح من الأفكار والأحكام الشائعة التي قد تكون قد رجع عنها صاحبها أو عدَّل رأيه فيها..

ومن أمثلة ذلك ما نقله الناقلون عن «إليوت» الناقد الإنجليزي من أنه يرفض دراسة الأدب مرتبطًا بصاحبه. وقد تمسك دارسون ونقاد بهذا الرأي إلى اليوم، حتى رفضوا تاريخ الأدب، بل رفضوا حتى مجرد الحديث عن الأديب وحياته وثقافته أثناء دراسة أدبه.. ثم جاء الدكتور هلال فكشف أن «إليوت» قد قال بهذا الرأي في الطبعة الأولى من كتابه «الغابة المقدسة». وكان قوله هذا نتيجة لمغالاة بعض النقاد في الحديث عن صاحب العمل الأدبي على حساب تحليل العمل نفسه. كما كشف الدكتور هلال أن «إليوت» قد رجع عن هذا الرأي في الطبعة الثانية من كتابه، فأقر بجدوى إفادة دارسي الأدب من ظروف حياة الأديب. ودعّم هلال رأيه بنصوص من كلام «إليوت» تقطع بإيمان الناقد الإنجليزي بقيمة المعارف التاريخية من حياة الكاتب، وذلك لفهم أدبه حق الفهم.

***

ولغنيمي هلال أعمال علمية جليلة في مجالي النقد والأدب المقارن.. وأهمها غير كتابيه «النقد الأدبي الحديث» و«الأدب المقارن»، وغير رسالتيه للدكتوراه: كتاب «الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية» وكتاب «دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب المعاصرة» وكتاب «دراسات أدبية مقارنة» وكتاب «المواقف الأدبية».. كما كتب عشرات من المقالات والدراسات في أهم الدوريات والمجلات، مثل «المجلة» و«الكاتب».. وقد جمع أكثر هذه المقالات والدراسات في ثلاثة كتب هي: «دراسات ونماذج

في مذاهب الشعر ونقده» و«النقد التطبيقي المقارن» و«قضايا معاصرة في الأدب والنقد».

سلامًا ودعاء بالرحمة السابغة للدكتور هلال وهو في رحاب اللّٰه.. وتحية لتلاميذه وأصدقائه الذين كرموه وأتاحوا لي فرصة تكريمه في ذكراه .

***

أهم المراجع:

١- محمد غنيمي هلال ناقدًا ورائدًا في دراسة الأدب المقارن، بأقلام مجموعة من أصدقائه وتلاميذه .

٢- النقد الأدبي الحديث للدكتور غنيمي هلال .

٣- الأدب المقارن للدكتور غنيمي هلال .

٤- الرومانتيكية للدكتور غنيمي هلال.

الدكتور محمد العلائي
الشاعر المظلوم

هذا الشاعر – الذي كان هو نفسه أظلم الناس لنفسه- قد كان موهبة شعرية فذة، من تلك المواهب العظيمة التي تألقت في منتصف الأربعينيات من هذا القرن، من خلال قصائد ممتازة نُشر معظمها على صفحات مجلة الرسالة، ولفتت الأنظار بقوة إلى شاعر من شعراء الطليعة في تلك السنوات.. ولكن الشاعر ما لبث أن شُغل بالدراسة الأكاديمية حين أوفد في بعثة إلى إنجلترا، ثم عاد ليشتغل بالتدريس في كلية الآداب بجامعة عين شمس، ثم ليضرِب عمداً عن قول الشعر، ضمن إضرابه عن كثير من الأمور التي تشغل غيره من الناس، وفي مقدمتها الشهرة.. وهكذا ظَلَم هذا الشاعر نفسه وظلم شعره. ولولا نفر من أصدقائه وعارفي فضله وقيمة شاعريته، عملوا أخيراً على جمع ما تيسر من شعره ثم طبعه في ديوان باسمه سنة ١٩٨٦م، أشرف على إخراجه، وقدم له الشاعر سعد درويش؛ أقول: لولا هذا لخيَّم النسيان على شعر العلائي كما خيَّم على ذكراه، مع أنه من الأفذاذ في عصرنا الحديث، موهبة شعرية؛ وقيمة فكرية، وأستاذية جامعية، وشخصية إنسانية .

***

والعلائي قد ولد سنة ١٩١٦م في قرية كفر الحَمَام قرب مدينة الزقازيق، من أسرة عُرفت بالعلم والأدب. وبدأ دراسته الأولى بالمدرسة الابتدائية، ولكن شاءت الأقدار أن يُحْرم نعمة البصر، وهو في نحو السادسة من عمره، فحفظ القرآن والتحق بمعهد الزقازيق الديني، وبعد أن نال الثانوية الأزهرية التحق بكلية أصول الدين نحو سنتين، ثم تمرد على الدراسة فيها والتحق بالجامعة الأمريكية فترة، ثم بكلية الآداب بجامعة القاهرة، التي أتم الدراسة بها، ودرس على أيدي الأساتذة الكبار فيها من أمثال طه حسين وأحمد أمين وأحمد الشايب وأمين الخولي، ونال درجة الليسانس سنة ١٩٤٥م، ثم ناضل نضال المستميت نحو سنتين، حتى نال بعثة إلى إنجلترا، حيث درس في جامعة «أدنبره» ونال درجة الدكتوراه في الآداب سنة ١٩٥٤م .

***

وهكذا جمع العلائي في مراحل تعليمه بين الدراسة التراثية والدراسة الحديثة، وبين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية. وكان لهذه الدراسة والثقافة الجامعة أثر بالغ في تكوين شخصيته العلمية الفذة.. ولكن شاعريته كانت أبرز مواهبه، كما كانت ثقافته في الشعر والأدب من أهم مكونات شخصيته. فقد قرأ الكثير من التراث الأدبي وخاصة التراث الشعري، وبصفة أخص شعر أبي الطيب وابن الرومي وأبي العلاء الذي كان يُؤثره ويرتبط به ويحفظ الكثير منه. كما قرأ الكثير من الإبداع الأدبي الحديث،

وخاصة مـا أبدعه الرواد، وبصفة أخص من عرف منهم بالتـجديد والثورية مـثل طه حسين والعـقـاد. وكان شـديد الإعـجاب بالشـعـراء الابتداعـيين العاطفـيين، الذين يطلق عليهـم «جماعـة أبوللو». وفي مقـدمة هؤلاء عند العلائي أبو القاسم الشابي.

***

على أن أهم تجربة في حياة العلائي كلها، هي تجربة فقدان البصر، بعد إدراك قيمة نعمة هذه الحاسة حتى فترة الصِّبا المبكر.. وإنما كانت تلك التجربة المريرة أهم تجـارب حيـاته؛ لأنه قُـدِّر له أن يقع تحت تأثيـرها الموجع، وكأنهـا الجرح النازف أبدًا.. ولعل العلائي من القـلائل من أصحاب هذه المحنة الذين لم يستطيعوا نسيان مأساتها يومًا.. ومن هنا صَبَغَتْ تلك التجربة المحزنة حياته كلها بلونها الرمادي، بل ألقت ظلالها السوداء على نظرته إلى الدنيا، وكوّنت له فلسفة حياتية تشبه فلسـفة سلفه أبي العلاء، وإن كان العلائي يستر هذا كله في حياته الاجـتماعية بالدعابة الجـميلة والسخرية الذكيـة، حتى صار من ألمع ظرفاء العصر.. وظل على هذا الحـزن الخفي والمرح الظاهري، حتى رحل عن عالمنا في شهر يونيو ١٩٧٠م .

***

وشعر العلائي يمضي – من حيث المضامين – في «الاتجاه الذهني» الذي يؤثر الفكر ويهتم بقضايا الإنسـان والحياة. وأهم القضايا عنده هي

قضية عجز الإنسان أمام القدر وعذابه بما كُتب عليه، واضطراره إلى أن يحيا حياته دون أن يختارها، وأن يتحمل شرور الناس راضيًا في الظاهر ممزقًا في الباطن.. وواضح أن محنته الأساسية لونت شعره بلونها القاتم، بل وجهته إلى حيث التعبير عن الوحشة والاغتراب والحزن العميق النبيل الواعي.

أما أسلوب هذا الشعر، فهو مزيج من «المحافظة البيانية» الرصينة و«الابتداعية العاطفية» المحلِّقة.. وهكذا جمع شعر العلائي- تقريبًا - أجمل ما في الاتجاهات الشعرية المعاصرة من سمات، بحيث يتعذر حصره، في اتجاه واحد أو إدراجه في مدرسة معينة.

ومن هنا تتضح شخصية العلائي الفنية، ويُعرف شعره متميزًا حتى ولو لم يُقرن به اسمه؛ فتجاربه مميزة وأسلوبه مميز ومعجمه الشعري مميز. وهذا كله دليل الموهبة الفذة والثقافة الحقة والممارسة الجادة والمعاناة الصادقة المبدعة.. ولعل الأبيات التالية تؤكد ذلك، وهي من قصيدته التي يناجي فيها أبا العلاء المعري في ذكراه الألفية، وفيها يقول:

شيخ المعَرَّة يا من ذاق آلامي

أيامُك السُّود كانت مثل أيامي

شكوتُ ما كنتَ تشكوه وفَزَّعَنِي

ما أثقل الأرضَ من رجس وآثام

وعشتُ في سجنك المشئوم واختنقتْ
في ظلمة السجن أحزاني وآلامي
ومزقتني ظنون طالما اصطرعتْ
في قلبك السمح أوهامًا بأوهام
نَقَضْتُ كَفَّيَ من يأسٍ ومن ألم
وارتدَّ قلبيَ لا راوٍ ولا ظامي
هَوْلُ التجارب ألْقَى الرعب في جسدي
فبِتُّ أفزع من فأر وضرغام
شيخَ المعرة أبلى الدهرُ أجوائي
وأطفأ الشمسَ في آفاق صحرائي
طويتُها دائرَ العينين منتفضا
أُبْدِي الأنينَ وأُخْفِي موطن الداء
وأبسط النفس للمجهول منتظرا
شدائد الغيب في صُبحي وإمسائي
وأَسْتَحِي أن تَرَى الأقدارُ بِي ظمأ
لِجُودِهَا أو تَرَانِي خَلْفَ أهوائي
نَذُوب إنْ مَسَّ ضَوءُ الشمس خَلَّتنا
ونرتوي بالصَّدَى كِبْراً على الماء

نَجْنِي ثمار الدواهي قبل موسمها
وَنُبْرِئُ النفس من داء بأدواء

على أن سيطرة محنة فقدان البصر على العلائي، قد جعلت بعض قصائده لا يكتفى بالشكاية العامة والحديث عن الاغتراب والوحشة والتعبير عن الحزن العميق النبيل، إنما يضم هذا البعض من القصائد أبياتًا تصور محنة فقدان البصر بشكل حاد وتعبير عن عمق معاناة الشاعر منها وثورته بسببها؛ حتى يصل التعبير أحيانًا إلى حَدٍّ يوشك أن يكون تمردًا صارخًا. ومن ذلك قوله في قصيدته السابقة مخاطبًا أبا العلاء، وكأنه يتحدث عن نفسه:

الشمس في الأفق شيء لستَ تعرفه
إلا ظنونًا وإلا قول أشهادِ
ويُمنَح الأرقمُ المسمومُ نُورَهما
لينقُل السم من وادٍ إلى واد

ومنه أيضًا قوله في قصيدته التي عنوانها «عند القمة الأولى»:

أنتَ يا من خَلَقْتَنِي، كنت أوْلَى
بضيائي من الدُّجَى والهوانِ
أنا راضٍ بما قَضَيْتَ ولكن
عاتبٌ أخرسَ الحياءُ لساني

على أن العلائي كان بعـد الثورة والتمرد، يعـود في هدوء وصفاء إلى العـزاء بالإيمان، والتوجـه بالشكوى إلى من يكشف الغـمـة ويفجـر النور من الظلمة.. ومن شعره في ذلك قصيدة عنوانها: «إلى السماء»، ويقول في الفقرة الأولى منها مناجيًا ربه:

لك الأمـر لا يَدْرِي عـبـادُك مـا بيـا
لك الأمـرُ لا للناصـحين ولا ليـا

وهذي مـعـاذيري وتلك صـحـائفُ
عليـهـا خطاياها، وفيـهـا اعـترافـيا

وفـيـهـا من الأمس الدفين وحـاضـري
وفـيـهـا من الآتي وفـيـهـا ابتـهـاليـا

وفـيـهـا من الماضي، ومـهـجـة شـاعـر
يـنام بهـا يأسًـا ويصـحـو أمـانيـا

وفـيـهـا أعـاجـيبٌ يُكفـَر مـا بهـا
ذنوبي وإن كـانت جـبـالاً رواسـيـا

ونـازعـنـي شـوق إلـيـك وهَـزّني
من الغـيـب مـا يهـفـو إليـه رجـائيـا

وجـئتُ من الدنيـا الأثيـمـة هاربا
بصـفـوىَ من أكـدارها ونقـائيـا

غفر اللَّه للعـلائي، وعوّضه في ضياء جناته، عـما عاناه من ظلام في حياته .

***

أهم المراجع::

١- قصائد من محمد العلائي، جمع وتحقيق وتقديم الأستاذ سعد درويش.

٢- المقدمة التي قدّم بها الأستاذ سعد درويش للمجموعة الشعرية التي جمعها ونشرها من شعر العلائي.

عبد الرحمن الشرقاوي
فارس الكلمة

من الرجال من لا يُنْسَوْن بالموت؛ لأن ما قدموا وخلفوا أكبر من أن يطمسه الموت. ولذا يبقون في ذاكرة الأجيال معالم مضيئة، ويعيشون في سجل التاريخ صفحات مشرقة.. فحين نتحدث عن الشرقاوي، لا نتحدث عنه تذكُراً بعد نسيان؛ فمثل هذا الكاتب الكبير هيهات أن ينسى.. إنما ننتهز الفرصة لنكشف عن بعض كنوز عطائه الثري، ولنُقدم بعض حقه علينا من الوفاء، فقد كان - رحمه الله - رجل الصدق والمروءة والوفاء.

وعبد الرحمن الشرقاوي موهبة نادرة في تاريخنا الأدبي، وشخصية باهرة في واقعنا الثقافي والأخلاقي.. أما موهبته النادرة، فتتمثل في هذا الإنتاج الغزير المتسم بالتنوع، والآخذ دائمًا موقع الريادة والتصدر.. فقد عرفنا أدباء يتفرغون للفن الشعري، وآخرين يجنحون إلى الفن القصصي؛ كما عرفنا مبدعين يؤثرون المسرحية، وآخرين يفضلون المقالة أو الترجمة أو الصورة القلمية.. وقد يجمع المبدع فيما ينتج بين لونين أو ثلاثة من ألوان الإبداع، فيكون روائيًا وقصاصًا، أو

كاتب قصة ومحرر مقالة، أو مبدع مسرحية ومؤلف قصص وروايات.. أما أن يجمع كاتب بين فنون الأدب وقوالبه وأشكاله، فأمر لم نعرفه في أدبنا عند كثيرين غير عبدالرحمن الشرقاوي.. فقد كان شاعراً، وكان قصاصًا، وكان روائيًا، كما كان كاتب مسرح، ومسطر مقالة، وراسم صورة أدبية، ومؤلف تراجم إسلامية.. فهو من أوسع الكُتّاب المعاصرين ميدانًا، وأرحبهم مجالاً، وأكثرهم تنوعًا في ألوان الإنتاج.. على أن موهبة الشرقاوي النادرة لا تكمن في هذا التنوع فحسب، وإنما تتجلى كذلك في مجال الريادة والتصدر والسبق.

***

فمن المعروف أنه - رحمه اللّه - كان أول من راد الشعراء إلى طريق الشعر الحر، أي الشعر الذي لا يلتزم فيه أن تتساوى أبيات القصيدة في الطول وعدد ما يؤلفها من تفاعيل، كما لا يلتزم فيه بقافية مطردة، أو بعدد من القوانين متماثلة في أبيات كل مقطع من مقاطع القصيدة.. هذا الشكل الحر من أشكال الشعر، راد إليه عبدالرحمن الشرقاوي، حين أخرج قصيدته المعروفة التي عنوانها «من أب مصري إلى الرئيس ترومان»، والتي فضح فيها الاستعمار، وصاح بحق الشعوب في الحرية والكرامة والعدل.. وقد يكون بعض الشعراء في مصر- كعلي أحمد باكثير ومحمد فريد أبو حديد ومحمود حسن إسماعيل- قد كتبوا من قبل ما يشبه هذا الشعر. وقد يكون بعض الشعراء في غير مصر -

كنازك الملائكة وبدر شاكر السياب- قد كتبوا أيضًا نماذج سابقة على قصيدة الشرقاوي من هذا الشعر.. ولكن قصيدة الشرقاوي كانت - في رأيي- النموذج الأول الذي عرفت الحياة الأدبية من خلاله- بشكل واضح- هذا اللون من ألوان القصيد، والذي اهتدى به من ساروا في هذا الطريق التحرري من الشعراء فيما بعد.. لأن العبرة في الريادة بما يكون من تأثير واجتذاب من جانب عمل الرائد، وبما يكون من تأثر واتباع من جانب الماضين في طريقه.

***

وكما كان الشرقاوي رائدًا في ميدان الشعر الحر، كان كذلك رائدًا في مجال المسرح الشعري.. ومعروف أن المسرح الشعري في أدبنا، قد بدأه شوقي وأصله عزيز أباظة.. لكن الشعر في مسرحيات كل منهما كان شعرًا ملتزمًا، يأخذ الطابع الموسيقي المعروف من قبل في الشعر العربي، من حيث التزام كل أبيات القطعة بقافية واحدة من القوافي.. ولكن الشرقاوي خرج على ذلك اللون المحافظ في كتابته للشعر المسرحي، واستخدم طريقة الشعر الحر فيما كتب من مسرحيات، معتمدًا على وحدة التفعيلة لا على وحدة البيت، وعلى تنوع نهايات روي الأبيات، لا على التزام حرف معين ليمثل قافية تختم بها كل الأبيات.

وهكذا كان الشرقاوي رائدًا متصدرًا في الأدب المسرحي، كما كان رائدًا في الفن الشعري.. وكما كانت قصيدته «من أب مصري» معلمًا في

حركة الشعر العربي، كانت مسرحيته «مأساة جميلة» معلمًا في حركة المسرح الشعري.

***

فإذا انتقلنا إلى مجال الفن القصصي، وجدنا الشرقاوي من أوائل من رادوا الطريق إلى الواقعية، واهتموا بالبيئة المحلية المصرية، وخرجوا بالفن الروائي - بصفة خاصة- من أحلام الرومانسية.. وروايته «الأرض» معْلم واضح على الأخذ بالواقعية في وعي والتزام من جانب، واقتدار فني ومعرفة دقيقة بأصول الفن الروائي من جانب آخر.. والمقارنة بين رواية «زينب» للدكتور محمد حسين هيكل، ورواية «الأرض» لعبدالرحمن الشرقاوي، توقفنا على الدور الكبير الذي قام به الشرقاوي في تطوير الرواية العربية. فالموضوع في الروايتين هو الريف المصري، ولكن النظرة إلى هذا الريف، وطريقة الكتابة عنه، والتقاط المشكلات الضاغطة عليه، والهدف من إبداع رواية تدور أحداثها فيه؛ كل هذا أمر يختلف فيه الكاتبان اختلافًا بينًا، يدرك معه المتتبع لمسيرة هذا الفن، أنه إذا كان الدكتور محمد حسين هيكل هو واضع الأساس لهذا الفن في أدبنا، فإن عبدالرحمن الشرقاوي - مع بعض الموهوبين من أبناء جيله - هم الذين أعلوا البناء وشادوا الصرح.

على أن من أهم ما أبدع فيه عبدالرحمن الشرقاوي وتفوق، فن كتابة التراجم والسير، وقد خلّف - رحمه اللّه- في هذا الميدان تراثًا

ضـخمًـا، حيث كـتب عن «مـحمـد رسـول الحرية»، وعن أبرز الخلفـاء «الفاروق عمر بن الخطاب» و«علي إمام المتقين»، كما كتب عن «عمر بن عـبدالعـزيز خـامس الخلفـاء الراشدين». كـذلك كـتب عن أئمـة الفقـه الإسلامي سلسلة من التـراجم غير مـسبوقة.. والجـديد في تلك التراجم والسير، أن الشرقاوي قد تناول فيها تلك الشخصيات الإسلامية الجليلة، بطريقة تكشف عن أروع القيم الإسلاميـة، وأعظم المبادئ الإنسانية. فهو لا يسرد تاريخًـا بقدر مـا يستنبط أمجـادًا، ولا يستـقرئ أحداثًا بقـدر ما يجسم قيمًا، ولا يترجم أشخاصًـا بقدر ما يجلي أعلامًا ورُوادًا، فإذا ذكر الشـرقـاوي ككاتب إسـلامي، فـإنما يقصـد بذلك أنه مـفكر حـضـاري، يغوص في تراث الإسـلام للكشف عن جوهره الخالد، وقـيمه الإنسـانية الرفيـعة، وهي تلك القـيم التي آمن بها الشـرقاوي والتـزم بها، وجـعلها أسس كل أعمـاله وروح كل إبداعاته، وهي قـيم الحق والخيـر، والعدالة والحرية، وكرامة الإنسان، وصراعه ضد كل قهر وطغيان.

***

وإلى ذلك كله كان الشـرقاوي كاتب مقـال من الطراز الأول. وكان يؤثر شكل المقال، حين يعالج موضوعًا حياتيًا مُلحًا، لا يمكن أن ينتظر حتى يُصاغ في مسرحية أو ينسج في قـصة أو رواية.. وكان رحمه اللَّه في كل ما يكتب ذا أسلوب متميـز، تغلب عليه البيانيـة الأخاذة، والقوة التعبيـرية غير المتفاصحة، فهـو مع كل بيانيته وجاذبيته وقوته سهل ممتنع، يفـهمه ويستمتع

به حتى من له القدرة فقط على القراءة.. ومن أهم ما يميز أسلوب الشرقاوي، هذه القدرة العجيبة على الاستفادة من العبارة القرآنية والكلمة القرآنية. وهو يشبه في ذلك مصطفى صادق الرافعي - رحمهما اللّٰه - حيث يهتم الشرقاوي ومن قبله الرافعي، بتطعيم أسلوبه بألفاظ - أو عبارات - من القرآن الكريم. وهي لا تأتي على أنها اقتباس يذكر منعزلاً على نسيج الأسلوب، وإنما تسلك فيه بمهارة، فتتألق كما يتألق الخيط الذهبي في النسيج، أو كما تشع بعض اللآلئ الثمينة في منظومة جيدة التنسيق.

***

وقد وُلد الشرقاوي في بلدة الدلاتون بمحافظة المنوفية سنة ١٩٢٠م، وحفظ القرآن بها في طفولته، ثم أتم تعليمه الابتدائي والثانوي بالقاهرة، حيث كان في صحبة إخوته الذين يكبرونه والذين يدرسون بها، ثم التحق بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) مع التردد على بعض محاضرات الأساتذة الكبار في كلية الآداب، كالدكتور طه حسين والشيخ مصطفى عبدالرازق. وبعد نيله ليسانس الحقوق سنة ١٩٤٣م عُين مفتشًا للتحقيقات بوزارة المعارف (التعليم الآن)، وأثناء هذا العمل حصل على إجازة لمدة عام قضاه في باريس على نفقته للتزود من الثقافة الغربية، إلى جانب الثقافة العربية التي كان يحصلها بشغف منذ بدايات وعيه، والتي كان يحرص فيها على التزود من الأدب العربي القديم

والحديث، ومن الفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي من مصادرهما الأصلية، وخاصة تلك التي تبرز الأفذاذ والأعلام الذين عرفهم هذا الفكر وحفظتهم ذاكرة هذا التاريخ. كل ذلك مع الاهتمام بالنزعة الفكرية التي تتجه إلى العدالة الاجتماعية، ومع الميل إلى الوجهة الفنية التي تأخذ بالواقعية الاشتراكية.

وقد اتجه الشرقاوي إلى الصحافة الأدبية منذ شبابه المبكر، فاشترك في تحرير الصفحة الأدبية بجريدة «المصري»، كما اشترك في إصدار مجلة «الغد الجديد» ثم استقال من وظيفته في وزارة المعارف سنة ١٩٥٦م، وتفرغ للعمل كاتبًا صحفيًا، فعمل رئيسًا للقسم الأدبي في «الجمهورية» ثم في جريدة «الشعب».

***

ثم انتقل إلى «روزاليوسف»، فعمل رئيسًا لتحريرها ولمجلس إدارتها.. ثم عُين سكرتيرًا عامًا للمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. ثم انضم إلى كبار كتاب الأهرام، وظل في هذا الموقع الممتاز إلى وفاته سنة ١٩٨٧م .

وإلى جانب هذه المواقع الأدبية المرموقة، اُختير الشرقاوي سكرتيرًا عامًا لمنظمة التضامن الإفريقي الآسيوي، ثم انتخب رئيسًا لهذه المنظمة. ونال جائزة الدولة التقديرية في الآداب، وهي أرفع جائزة أدبية مصرية.

وكـان الشرقـاوي مثـالاً رائعًـا في نقاء النفس وطيبـة القلب ويقظة الضمـير، هذا إلى وفاء نادر، وأخـوة حانيـة، وفروسيـة فدائية.. فـهو رجل عـاش لـلحق والصـدق والمروءة والإخـلاص والوفـاء.. طيـب اللّٰه ثراه.. وجعل الجنة مثواه.

***

أهم المراجع:

١- عبدالرحمن الشرقاوي - الفلاح الثائر، للأستاذ كمال محمد علي .

٢- مسرحيات جميلة والفتى مهران والحسين ثائرًا وشهيدًا .

٣- رواية الأرض.

٤- سلسلة القمم الإسلامية: محمد رسول الحرية، والفاروق عمر بن الخطاب، وعلي إمام المتقين، وعمر بن عبد العزيز. للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي .

٥- سلسلة أئمة الفقه الإسلامي .

٦- مقالات الأهرام، التي كتبها الأستاذ الشرقاوي في السنوات الأخيرة من حياته .

فوزي العنتيل
عاشق عبير الأرض

هذا شاعر كبير من شعراء مصر الملهمين المعاصرين، ومن هذا الجيل الذي أصّل الاتجاه الشعري الجديد، الذي بدأ يظهر في أواخر الأربعينيات، ثم قوي في أوائل الخمسينيات، بعد انحسار موجة الاتجاه «الابتداعي العاطفي» الذي اشتهر باسم الاتجاه «الرومانسي».. وأقصد بالاتجاه الجديد، ذلك الاتجاه الذي شاعت تسميته باسم الشعر الحر، الذي لا يلتزم في كل الحالات بالقواعد العروضية التي تقوم على وحدة البيت، ولا يلتزم كذلك بوحدة القافية ولا بتنوعها فقط بتنوع الفقرات المكونة للقصيدة، والذي كان - في أول ظهوره وإلى سنوات بعد ذلك - يجنح إلى كثير من الواقعية ومعالجة موضوعات معيشية ذاتية أو اجتماعية أو سياسية أو حياتية على وجه العموم، ثم أخذ بعد ذلك يتجه إلى لون من الرمزية، وانتهى عند عدد غير قليل من شعرائه إلى الحداثة بإبهامها وتمردها وانفصالها عن الواقع، وغير ذلك مما يوشك أن يقطع الصلة بين نماذج الشعر الحر المتأخرة ونماذجه المتقدمة .

***

فكان فوزي العنتيل إذن ممن أصَّلُوا هذا الاتجاه التحرري في مرحلته الأولى قبل أن يتجه إلى الرمزية أو يغرق في الحداثة، بل أكثر من ذلك كان يمتزج في شعرهم كثير من خصائص هذا الاتجاه الشعري الجديد ببعض خصائص الاتجاه «الابتداعي العاطفي» الذي يسمى «بالرومانسي». كذلك كان العنتيل أكثر أبناء جيله ارتباطًا بالأرض وأشدهم عشقًا لها وامتزاجًا بها.. ومن أجل هذا العشق والامتزاج بالأرض، اهتم فوزي العنتيل بقضية الحرية، التي لا تكون الأرض عرضًا مصونًا إلا بها، ولا حمى مقدسًا إلا في ظلالها.. بعد موضوعي الأرض والحرية يشارك فوزي العنتيل شعراء الاتجاه التحرري وشعراء الاتجاه «الرومانسي» في الاهتمام بالتجارب العاطفية والوجدانية والتعبير عنها تعبيراً يحلق بالخيال ويفيض بالعاطفة الحزينة، ويبلل أحيانًا بالدموع، لكنه كثيراً ما يمضي – على عادة الواقعيين الاشتراكيين– فيختم قصائده بنبرة متفائلة تفتح الأمل لمستقبل أفضل، وتبشر بفجر مضيء يطارد الليل المظلم .

وقد أخذ فوزي العنتيل بهذا الاتجاه الشعري– وبما تميز به هو – نتيجة لظروف نشأته وروافد ثقافته ومؤثرات حياته وسمات شخصيته .

***

فقد ولد فوزي العنتيل في قرية «علوان» بمحافظة أسيوط سنة ١٩٢٤م، وكان والده يهتم بزراعة الأرض اهتمامه بالتعليم وتربية النشء،

حـيث كان فـلاحًا ومـدرسًـا بمرحلة التعليم الأولـى.. وبدأ فوزي العنتـيل تعليمـه بحفظ القرآن الكـريم في قريته «علوان»، ثم التـحق بمعهد أسـيوط الديني، وبعـد أن نال الشهادة الثـانوية الأزهرية التـحق بكلية التـربية ونال دبلومها سنة ١٩٥٢م. وبدأ بعـد ذلك رحلة حياته الوظيفية، فـعمل مدرسًا نحـو أربع سنوات، ثـم نقل إلى المجلس الأعلى للفـنون والآداب والعلوم الاجتـماعـية سنـة ١٩٥٦م، حيث عـمل سكرتيرًا للجنة الشـعر التـي كان يرأسـها حـينذاك الأسـتـاذ العقـاد.. وفي سنة ١٩٥٩م حـصل على منحـة لدراسة «الفولكلور» في أيرلندا، حيث ظل بها سنتين، ونال خبرة كبيرة في هذا اللون من الدراسة. ثـم عاد إلى مصـر، وقد أضاف إلى ثقـافته العـربية الأدبية ثقـافة إنجليـزية «فولكلورية».. ثم سافـر إلى نيجـيريا سنة ١٩٧١م، ليحاضر في بعض جامعاتها، ولكنه عـاد بعد عام إلى مصر ليستأنف عمله في المجلس الأعلى للفنون والآداب الذي تدرج في مناصبه. ثم سافـر مرة أخـرى سنة ١٩٧٧م، ولكـن إلى المجـر هذه المرة لكي يحـاضـر في بعض الجامـعات المجـرية. وبعد سنتين عاد إلى مـصر، وانتـدب للعمل في هيـئة الكتاب مديرًا «لتحقيق التراث»، وظل في هذا المنصب حتى توفي في شهر مايو سنة ١٩٨١م .

وكـان فوزي العنتـيل شديد الحب لـلقراءة والتـحصـيل منذ صبـاه المبكر، فأثناء دراسته الثانوية والعاليـة قرأ الكثير من كتب الأدب ومجلاته، كما عكف على الكثيـر من دواوين الشعر ومختاراته. وأقبل بصـفة خاصة

على شعر «العاطفيين الابتداعيين» من أمثال إبراهيم ناجي وعلي محمود طه المهندس وأبي القاسم الشابي، وانجذب بصفة أخص إلى شعر محمود حسن إسماعيل، الذي وافقت نزعته في حب الأرض نزعة شاعرنا العاشق لعبير الأرض.. كذلك تعلق فوزي العنتيل- في مرحلة التحصيل- بالشعر المهجري وخاصة شعر جبران وإيليا أبي ماضي ... وبعد ذلك جذبته بشائر الاتجاه الشعري الجديد- الذي يسمى بالشعر الحر أو شعر التفعيلة- وأعجبه منه بصفة خاصة تلك النزعة الثورية التي تتجلى في الدفاع عن الأرض والتعلق بالحرية والمطالبة بالعدالة الاجتماعية.. وضاعف من هذه النزعة لدى العنتيل وجيله قيام ثورة يوليو التي أججت هذه الروح، والتي تجاوب معها شعراء هذا الاتجاه في أول عهدها بشكل واضح.. ثم أضاف العنتيل إلى كل هذه الروافد الثقافية بعض الثقافة الغربية، والتي أفادته من غير شك في المرحلة الأخيرة من حياته، وذلك بعد سفره إلى أيرلندا وتعلمه الإنجليزية «والفولكلور»، وبعد سَفره إلى المجر وتدريسه بها، ثم بعد رحلاته العديدة في كثير من البلاد الأوروبية .

***

وهكذا كانت ثقافة فوزي العنتيل- بعد أن اكتملت- مستمدة من روافد محافظة وأخرى مجددة وثالثة تحررية ورابعة غربية.. وقد تمثل الرافد المحافظ في تعلمه في المرحلة قبل الجامعية، وتمثل الرافد التجديدي في

تعلمه في كلية دار العلوم وكلية التربية في المرحلة الجامعية، كما تمثل الرافد التحرري أو الثوري فيما تلقاه من قراءاته لإنتاج أصحاب النزعة التحررية الواقعية التي كانت متأثرة بالواقعية الاشتراكية... وقد عمق هذا الرافد عند العنتيل ما كان له من علاقات صداقة مع بعض أصحاب هذه النزعة مثل عبدالرحمن الشرقاوي.. ثم تمثل الرافد الغربي فيما حصله العنتيل أثناء حياته في أيرلندا والمجر وخلال زياراته لعدد غير قليل من البلاد الغربية .

ومن هذه الثقافة المنوعة، ثم من طبيعة الشاعر وسمات شخصيته المتسمة بالرقة والشفافية والحساسية والعاطفية والروح الريفية، من ذلك كله سار فوزي العنتيل في الاتجاه الشعري الذي يمتزج فيه كثير من خصائص الاتجاه «التحرري الواقعي» بكثير من سمات الاتجاه «الابتداعي العاطفي»، والذي لا يخلو من بعض ملامح الاتجاه البياني، التي تتمثل في دقة اللغة ونصاعة البيان والحرص على الموسيقا التي تأخذ في كثير من الأحيان شكل الشعر الملتزم بوحدة الوزن واطراد القافية، وإن كان العنتيل يؤثر في إخراج القصائد التي من هذا اللون أن يكتب أبياتها مقسمة الجمل وموزعة على أسطر متتالية، وكأنها ليست قصائد ملتزمة وإنما هي من شعراء التفعيلة .

***

وكان فوزي العنتيل قد بدأ ينشر شعره على صفحات المجلات الأدبية المصرية والعربية وهو طالب في كلية دار العلوم، واقترب كثيراً - بعد تخرجه - من الصحافة الأدبية، حتى اختير محرراً لصفحة بريد الشعر في مجلة الرسالة الجديدة التي كان يرأسها يوسف السباعي، ثم نشر الشاعر ديوانه الأول «عبير الأرض» سنة ١٩٥٦م.. وهو يمثل - أول ما يمثل - تجربته الشعرية الرئيسية، وهي تجربة عشق الأرض، كما يمثل ما ارتبط بهذه التجربة الرئيسية من هيام بالحرية.

والأرض عند فوزي العنتيل تبدأ من القرية التي امتزج بترابها وكأنه بذرة غرست فيها، ثم نبتت منها مثل عيدان سنابلها وسيقان نخيلها وأشجارها... ثم تتسع دائرة الأرض عند العنتيل لتشمل الوطن كله، الذي أنبت بقية المواطنين، وواري عظام الآباء والأجداد السابقين، والذي هو الأمل والحياة للأبناء والأحفاد القادمين .

وعن الأرض «القرية» يقول العنتيل:

مِن ألفِ عَامٍ بعيد
غَنَّتْ به ساقياتي
عانقتُ أرضي جنينا
مقيَّدَ الخُطُواتِ
وكان جَديَ فيها
قد عاش قبلي حياتي

أجَنَّنِي في ضـمـيـر الحـقـول مـثلَ لداني

مـثلَ السنابلِ، مـثل البـذور، مـثل النواةِ

وعن الأرض «الوطن» يقول العنتيل، من قصيدة كتبها أيام العدوان الثلاثي، ولم تنشر في ديوان «عبير الأرض» ولكنها تنتمي فنيًا إلى مرحلته:

أقسمتُ بالشهداء لن يتقدموا في أرضنا

لن يعبروها فوقنا

لن يعبروا الأرض التي اصطبغت بلون دمائنا

وأخضَوْضَرَتْ أشجارها بدموعنا

أقسمتُ بالنيل المقدّس لن يَمُرُّوا من هنا

ليُدَنِّسُوا تاريخنَا

ويُخضِّبُوا أيامنَا

أقسمتُ لن يَرِدَ الغزاةُ مياهنَا

لن يستبيح الغاصبون حقولنا

لن يقتلوا أطفالنا

لن يقهروا الشعبَ الأبيَّ المؤمنا

***

وبعد ظهور ديوان «عبير الأرض» الذي يمثل المرحلة الثورية العاطفية لفوزي العنتيل، اهتم شاعرنا بأنشطة مختلفة قللت من إبداعه الشعري. ومن هذه الأنشطة سفره إلى أيرلندا ودراسته «للفولكلور»، ومنها سفره إلى المجر وصياغته لبعض الشعر المجري المترجم إلى العربية، ومنها ترجمته لبعض المسرحيات عن الأدب الأيرلندي. ومن هذه الأنشطة كذلك تأليفه كتابًا عن «التربية عند العرب»، ومنها بعد ذلك تحقيقه لبعض كتب التراث، كالجزء السادس والعشرين من كتاب «نهاية الأرب» للنويري. ومنها آخر الأمر تأليفه لثلاثة كتب متصلة «بالفولكلور»، هي : «الفولكلور ما هو؟»، و«الثقافة الشعبية والفولكلور»، ثم «عالم الحكايات الشعبية» الذي نشر بعد وفاته.

***

ويبدو أن العنتيل كان يعاني من أزمة نفسية تجاه الحياة الشعرية في تلك السنوات، فلم ينتج خلال السنوات العشر التالية لظهور ديوان «عبير الأرض» شعرًا يعادل في كمه السنوات العشر.. ثم نشر ديوانه الثاني «رحلة في أعماق الكلمات» سنة ١٩٨٠م، متضمنًا ما كتبه بعد ديوانه الأول من أشعار، ومتضمنًا كذلك بعض ما كتبه قبل ذلك ولم ينشره في «عبير الأرض».

وقد جاء هذا الديوان الثاني «رحلة في أعماق الكلمات» ممثلاً - في جملته - لمرحلة أخرى من مراحل العنتيل الشعرية، وهي مرحلة مختلفة عن مرحلة الديوان الأول في الرؤية والروح وطريقة الأداء جميعًا.. أما الرؤية فقد أصبحت أكثر انفساحًا وأرحب آفاقًا، فلم تقف الأرض المعشوقة عند القرية ولا عند الوطن، وإنما انفسحت لتشمل الأرض العربية كلها.. وأما الروح فقد جنحت - غالبًا - إلى الهدوء، وأصبح العقل والتأمل ينافسان العاطفة والانفعال في كثير من القصائد.. وأما طريقة الأداء، فقد ظهرت فيها ملامح لم تظهر بشكل واضح في الديوان الأول، ومن تلك الملامح، البعد عن النبرة العالية، ومنها استدعاء بعض العناصر التراثية، وتوظيف بعض الشخصيات التاريخية، ثم الميل إلى شيء من الرمزية الشفافة، وكل ذلك لإثراء العملية الإبداعية الشعرية.

ومن النماذج التي تمثل تلك المرحلة الثانية في شعر فوزي العنتيل، هذه القصيدة التي جاءت في ديوان «رحلة في أعماق الكلمات» بعنوان «تنويعات صوفية»، والتي يقول فيها:

لو أنَّ المعتمد الإشبيلي تَدَبَّر

في معنى «لا غالب إلا الله»

ما راحت مئذنة أندلسيهْ

تشهق في استحياءْ

لم تسقط راية طارق

من سارية حمراءْ

لم يأكل لحمي الغرباءْ

***

بَدَلاً من أن تَسْجِن روحي في حصن الكرك

وتمزّق أجنحتي الذهبية

بَدَلاً من أن تغرق أشرعتي البيضاء

في عاصمة النفط المسموم

وتحطم سفني في الميناء

بدلاً من أن تصلبني في جذع النخلة

وتجرجر جسدي في دِجلهْ

بدلاً من أن تدفن قلبي

في غابات الأردن المبتلهْ

أُقتل أعداءك يا قابيل

***

وهكذا كان فوزي العنتيل علمًا من أعلام شعرائنا المعاصرين، وواحداً ممن يعتز بهم الشعر المصري ويضعهم التاريخ الشعري في طليعة المبدعين المؤصلين لاتجاه التحرريين المعتدلين، الذين مضوا في الاتجاه الجديد، دون قطع الصلة بالجميل والباقي من موروث الشعر الحديث، الذي واصل مسيرته في تطوره الصاعد وحركته البناءة .

***

أهم المراجع:

١- فوزي العنتيل - حياته وأدبه للأستاذ حمدي فتوح والي (رسالة ماجستير) من دار العلوم .

٢- عبير الأرض للشاعر فوزي العنتيل .

٣- رحلة في أعماق الكلمات للشاعر فوزي العنتيل.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

***

من تراث الدكتور أحمد هيكل

(أ) كتب ودراسات:

* **الأدب الأندلسي**

من الفتح إلى سقوط الخلافة

* **تطور الأدب الحديث في مصر**

من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية.

* **الأدب القصصي والمسرحي**

من أعقاب ثورة ١٩١٩ إلى قيام الحرب الكبرى الثانية

* **دراسات أدبية.**
* **قصائد أندلسية.**
* **محاضرات عن الإسلام «بالإسبانية»**

* شخصيات أدبية .

* سنوات وذكريات .

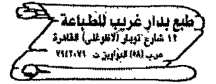
* سيرة ذاتية .



* أصداء الناي .

* حفيف الخريف .






709
19
Bibliotheca Alexandrina
1097967